محمود الشرقاوى

المجتمع العربي

اقرأ ٢٢٥
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٢٥ – سبتمبر ١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

المجتمع العربي

الفصل الأول

الأسس الجغرافية البشرية للمجتمع العربى

١ — وطن المجتمع العربى

يمتد العالم العربى ، وطن المجتمع العربى ، بين غرب آسيا وشمالى أفريقية من خليج البصرة شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسى غرباً ؛ ومن جبال طوروس شمالا إلى حدود المنطقة الاستوائية جنوباً . وتقدر مساحته بنحو عشرة ملايين من الكيلومترات المربعة[١].

وينقسم العالم العربى جغرافيًّا إلى قسمين : قسم فى غرب آسيا ، وقسم آخر فى شمال أفريقية . يشمل القسم الأول جزيرة العرب (نجد — الحجاز — اليمن — سلطنة لحج وعدن — حضرموت — عمان — مسقط — ساحل الصلح — قطر — البحرين — الكويت) والعراق والشام (إقليم سوريا — لبنان — فلسطين — الأردن) .

ويشمل القسم الثانى : إقليم مصر — السودان — ليبيا — تونس — الجزائر — مراكش . ويشغل العالم العربى مركزاً

---

(١) « جغرافية البلاد العربية » للأستاذ بسام كرد على .

ذا خطورة بينة فى جغرافية العالم ، فهو ملتقى القارات الكبرى للعالم القديم «آسيا وأوربة وأفريقية» ؛ وتسكنه عدة أقوام لعبت أدواراً هامة فى تاريخ البشرية ، وهو مهد الحضارات ، ومهبط الوحى ؛ وأقاليم الوطن العربى وإن كانت متنوعة فى المناخ والطبيعة كما هى متنوعة فى الإمكانيات ، إلا أن ما ينقص من أحدها يتوافر فى الآخر بحيث يمكن أن يقال إنها يكمل بعضها بعضاً وتكون وحدة جغرافية واقتصادية وطبيعية تامة . ففيها المناطق الحارة والمناطق الباردة ، وفيها ما يصلح ليكون أحسن المصايف وما يصلح ليكون من أحسن المشاتى ، وفيها ما يصلح للاستغلال الزراعى الخاص بالبلاد الحارة كما فيها ما يصلح للاستغلال الخاص بالبلاد المعتدلة والباردة . وفيها الغابات التى تشغل فى بعضها قسماً كبيراً من مساحتها كما هو الشأن فى بلاد الشام والسودان ، وفيها الأنهار العظمى كنهر النيل ونهر الدجلة ونهر الفرات . وفيها السهول الواسعة الخصبة . وفيها الجبال المرتفعة ، وفيها المنخفضات والأغوار ويتخلل صحاريها وبواديها الواحات التى تتفجر فيها الينابيع وتكون الحياة فيها صالحة والاستغلال الزراعى ممكناً .
وهى تشغل جميع سواحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبية وجزءاً مهماً من سواحله الشرقية كما تشغل القسم الأكبر من سواحل البحر الأحمر الغربية وجميع سواحله الشرقية . ثم جميع سواحل خليج البصرة الغربية ، وتطل على المحيط الهندى

من جنوب جزيرة العرب ، كما تطل عليه من شرقها وتطل على المحيط الأطلسى من غرب مراكش . وفيها الخلجان الكبيرة والصغيرة التى يصلح بعضها لإقامة أعظم الموانئ . ويوجد فيها عدد من البحيرات الصغيرة والمتوسطة والحلوة والمالحة وفى بعضها من الأملاح والذرات المعدنية ما يعادل ثروات هائلة ، وفيها مغاصات اللؤلؤ والمرجان ومصايد الأسماك[١] .

ويوجد فى الوطن العربى ثروات ضخمة ، إذ تحتوى أرضه على ٦٠ فى المائة من احتياطى البترول والغاز الطبيعى فى العالم . كما توجد معادن أخرى كالحديد والفوسفات والنحاس والمنجنيز والرصاص والزنك والفضة والزئبق وغيرها .

والزراعة وصناعاتها من أهم موارد الوطن العربى . وتقوم نهضة صناعية ضخمة فى الجمهورية العربية المتحدة لتحقيق الاكتفاء الذاتى ، والتوسع فى الصناعات التى يمكن أن تجد سوقاً للتصدير إلى الخارج بغية زيادة حصيلة البلاد من النقد الأجنبى ، فقد وجهت عناية لتحقيق هذا الهدف عن طريق المشروعات ذات الأهمية الاستراتيجية ، خصوصاً تلك التى تعمل على توفير القوة الكهربائية لخدمة الزراعة والصناعة

---

(١) الوحدة العربية للأستاذ محمد عزة دروزة .

والنقل وكذلك طرق المواصلات مع إتمام مسح مناطق الثروة المعدنية وإقامة طائفة من الصناعات الأساسية مثل صناعة الحديد والصلب وصناعة الأسمدة وصناعة تكرير البترول .

وتدل الإحصاءات الأخيرة على أن عدد سكان الوطن العربى يقرب من ثمانين مليوناً . ويتكلم ٧٥ مليوناً منهم أى ٩٤ فى المائة العربية الصريحة . ويعيش منهم ٢٥ فى المائة عيشة البدو فى الخيام وعرائش القش فى جزيرة العرب وبوادى الشام والعراق وإقليم مصر والسودان وليبيا والمغرب ، ويعيش الباقون عيشة حضرية بدرجات مختلفة فى المدن والقرى ، منها ما يصل إلى الدرجات العلى ، ومنها ما هو فى الدرجات الأولى .

٢ — من هم العرب

العرب هم الأقوام التى تنطق باللغة العربية ، وهى إحدى اللغات الشرقية والسامية القديمة ويقال العرب العاربة ، والعرب العرباء ، وهم من ليسوا عجماً ، ورجل عربى أى ثابت النسب فى العرب وإن كان غير فصيح[١] . وقال صاحب اللسان « والعرب هذا الجيل لا واحد له من لفظه ، وسواء أقام بالبادية أو بالمدن . والنسبة إليها أعرابى وعربى . والعرب

(١) فاتحة الدراسات العربية للأستاذ عبد الله حسين .

منهم أهل الأمصار والأعراب منهم سكان البادية خاصة » .

وقد كانت جزيرة العرب مأهولة بجماعات متشابهة فى الملامح والطبائع تتكلم لغة واحدة ، وإن تعددت لهجاتها . وإن الأقوام التى سميت خطأ بالأقوام السامية ، وسجلت نشاطها السياسى والحربى والاجتماعى والعمرانى والفكرى العظيم فى جنوب الجزيرة وشمالها ثم فى البلاد المجاورة للجزيرة أى بلاد العراق والشام ووادى النيل هم من هذه الجماعات .

وإن تسمية الأقوام التى كانت تعيش فى جزيرة العرب بالأقوام السامية ابتكرها المستشرق النمساوى شلوزر سنة ١٧٨١ استناداً إلى الأنساب الواردة فى سفر التكوين وليس لها سند من تاريخ وعلم وآثار . والتسمية الصحيحة التى لها سند من كل ذلك هى «الأقوام العربية » فإن جزيرة العرب هى مقر هذه الأقوام تذكر باسم العروبة فى كتب اليونان والرومان القديمة منذ ألفين وخمسمائة سنة . واسم العرب الصريح أخذ يطلق على أهلها المستقرين فى داخلها أو على تخومها الشمالية جزئياً أو كلياً منذ ألفين وخمسمائة سنة كذلك على ما تدل عليه النقوش الأشورية ونصوص أسفار «العهد القديم[١]» .

واللغة التى يتكلم بها سكان الجزيرة والبلاد المتاخمة لها منذ ألفين وخمسمائة سنة هى اللغة العربية بغض النظر عن

---

(١) الوحدة العربية للأستاذ محمد دروزة .

تعدد اللهجات . فإطلاق تعبير الأقوام العربية على سكان جزيرة العرب والبلاد المجاورة لها أصح علميًا وتاريخيًا وواقعيًا من تعبير الأقوام السامية ، لأنه يمتد فى سنده إلى حقبه سحيقة فى القدم ويتصل بالواقع الراهن[١].

وقد حدت العوامل الطبيعية والاجتماعية مثل الجفاف والقحط وقلة الكلأ والمنازعات القبلية إلى الهجرة من الجزيرة العربية ، فانساح إلى الأقطار المجاورة جنوباً وشمالا عدد كبير من السكان . ثم ظلت هذه العوامل تعمل عملها قبل الإسلام وبعده ، فيكون فى هذا التلاحق المتواصل المتحد فى طبيعته ودوافعه الدليل على وحدة الأصل والجنس والمنشأ بين سكان الجزيرة والأقطار المجاورة لها ، ويكون فيه وسيلة مستمرة إلى توثيق الصلات والروابط والوحدة بين القلب والأطراف وتجديد دم الجنسية العربية وحيويتها وطابعها مما لا يكاد يوجد له مثيل فى العالم[٢] .

وقد أخذت بلاد الشام منذ خمسة آلاف سنة تعمر بالموجات الكبرى التى جاءت إليها من الجزيرة العربية رأساً أو بطريق

---

(١) من هذا الرأى أيضاً الدكتور جواد على فى كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » . والأستاذ عطية الإبراشى وزملاؤه فى كتاب « الأمم السامية ولغاتها » .

(٢) المرجع السابق .

العراق والتى عرفت بأسماء الكنعانيين والفينيقيون فرع منهم — والعموريين والآراميين ، وبالموجات الصغرى التى كانت تنساح من وقت إلى آخر كنتيجة لهذه الموجات الكبرى وتابعة لها والتى لم تذكر باسم خاص فى الأسفار والآثار ، ثم بالثموديين والنبطيين والتدمريين والعبابيد والمرسهان وأخذ السابقون واللاحقون ينصهرون فى بوتقة العروبة بسهولة ويسر وتذوب الشخصيات واللهجات غير الصريحة فى عروبتها ، حتى إذا جاءت موجة الفتح الإسلامى الكبرى قويت عملية الانصهار وتكاملت حتى غدت العروبة طابع هذه البلاد الخالد .

ومنذ أكثر من خمسين قرناً أخذ العراق يعمر بالموجات الكبرى التى كانت تنساح إليه من جزيرة العرب رأساً أو عن طريق الشام والتى عرفت بالكلدانيين والأكاديين والعموريين والآشوريين والآراميين وبالكثير من الموجات الصغرى التى كانت تلحق بهذه الموجات وتندمج فيها ، ثم بالتنوخيين واللخميين والشيبانيين والتغلبيين والأسديين وغيرهم من الذين كانوا يملأون جنبات العراق . وقد أخذت أنسال هذه الموجات تنصهر فى بوتقة العروبة فى سهولة ويسر وتذوب الشخصيات واللهجات غير الصريحة فى عروبتها حتى إذا جاءت موجة الفتح الإسلامى الكبرى قويت عملية الانصهار وتكاملت حتى غدت العروبة طابع هذه البلاد الخالد .

وكذلك كان شأن وادى النيل حيث أخذ يعمر بالموجات

التى كانت تنساح إليه من جزيرة العرب عن طريق سيناء وبرزخ السويس تارة وعن طريق باب المندب تارة أخرى ، حتى إذا جاءت موجة الفتح الإسلامى الكبرى أخذت أنسال الموجات الأولى تنصهر فى بوتقة العروبة الصريحة التى كانت طابع هذه الموجة فلم تمض بضعة أجيال حتى تكامل الانصهار وغدت العروبة طابع هذه البلاد الخالد أيضاً .

وكان المغرب مهجر موجة عربية وهى الموجة الكنعانية الفينيقية التى قدمت إلى سواحل بلاد الشام ، حيث مارست الملاحة والتجارة . وكان البحر الأبيض المتوسط ميدان نشاطها ، وأنشئت عدة مراكز ملاحية وتجارية . وفى القرن العاشر قبل الميلاد تأسست الدولة التجارية البحرية الكبرى ، المعروفة بدولة قرطاجنة .

ومن هذه الحقائق التاريخية يتضح لنا حقيقة تسرب الدماء العربية إلى بلاد المغرب قبل ظهور الإسلام بقرون عديدة ، ثم أصبحت مهجراً للموجات العربية الصريحة فى عهد مبكر من ظروف الفتح الإسلامى ، حيث سير عمرو بن العاص حملة عربية إلى ليبيا ، ثم سير عبد الله بن سعد فى عهد عثمان بن عفان حملة عربية إلى تونس ، ثم أخذت الموجات العربية تترى إلى بلاد المغرب فى عهد الأمويين حيث أتمت توطيد السلطان العربى فى جميع أنحائها قبل انتهاء القرن الأول الهجرى ، ولم تنقطع الموجات العربية عن الانسياح فى بقية

عهد الدولة الأموية ، ثم فى عهد الدولة العباسية والفاطمية حيث ظلت تتلاحق وتملأ جنبات بلاد المغرب حتى أصبح طابع العروبة بارزاً عليها[١] .

ومما سبق يتضح لنا أن الوحدة الجنسية متوفرة بعمق وقوة فى الوطن العربى الكبير منذ أقدم أزمنة التاريخ إلى الآن . وقد أصبحت العروبة الصريحة طابعه الخالد منذ الفتح الإسلامى بفضل الإسلام العربى والقرآن العربى ، ثم بما ظل ينساح من الجزيرة العربية إلى بقية أنحاء هذا الوطن من موجات متوالية فى مختلف الأوقات .

ولا يدحض هذه الحقائق القول بأن فى مختلف أنحاء الوطن العربى جماعات تمت إلى غير الجنس العربى ، وأن دماء غير عربية تجرى فى عروق بعض سكانه ، فمنهم من يتصل وجوده فيه بالأحقاب القديمة حيث كانت موجات وغزوات أسيوية وأفريقية وأوربية تطرأ على بعض أجزائه وتستقر فيه ، ومنهم من يتصل وجوده بالأحقاب الحديثة . ونحن نرد على هذه الاعتراضات بقولنا إن الذين يتصل وجودهم فى هذا الوطن بالأحقاب القديمة من الأسيويين والأفريقيين والأوربيين قبل الإسلام وبعده ، قد امتزجوا بالعرب والبيئة العربية وانطبعوا بالطابع العربى . ومر على ذلك أزمان طويلة

---

(١) المرجع السابق .

ولم يعد لهم لغة غير اللغة العربية ووطن غير الوطن العربي وقد وحدت أحداث التاريخ وأحقاب الزمن بينهم وبين الجنس العربي في الوطن والمصلحة واللغة والعادات فصاروا عرباً تاريخياً ووطنياً ولو لم يكونوا عرباً جنساً .

والوطن العربي وحدة تاريخية ، ووحدة ثقافية ، ووحدة دينية ، ووحدة اجتماعية .

١ — الوطن العربي وحدة تاريخية :

عند ما قام حكم الفراعنة في مصر ، لم يقتصر نطاق هذا الحكم على الأرض المصرية فحسب ، بل امتد في الأرض العربية حتى وصل إلى أرض ما بين النهرين في العراق .

وحينما انهار حكم السومريين قبل ذلك في بلاد ما بين النهرين « العراق » انهار على يد القبائل السامية التي جاءت من جزيرة العرب ، واستوطنت ما بين النهرين بعد السومريين .

وحين خرج البابليون والكلدانيون والأشوريون من جزيرة العرب واستوطنوا ما بين النهرين في العراق لم ينعزلوا هناك ، بل مدوا سلطانهم إلى أرض وادي النيل ، وأسسوا دولا ضمت قسماً كبيراً من الوطن العربي .

وأسس الفينيقيون الذين هاجروا من جزيرة العرب ، واستوطنوا ساحل البحر الأبيض المتوسط ، « ولا سيما لبنان » دولة قرطاجنة قرب تونس اليوم .

وهذه الأقوام التى كانت تسكن الوطن العربى قبل الفتح الإسلامى والتى جاء معظمها من جزيرة العرب ، لم تكن معزولة تماماً عن بعضها كما يظن الكثيرون ، بل كانت تجاور بعضها البعض ، وتمتد إلى حدود بعضها البعض[١] .

وعند ما بزغ نور الإسلام فى جزيرة العرب ، لم ينعزل العرب أبداً فى الجزيرة العربية ، بل انطلقوا ينشرون الدين الإسلامى ، فى جميع أرجاء الوطن العربى ، وتمت فى ذلك العهد الوحدة العربية . وعاش العرب فى الجزيرة العربية والعراق والشام ووادى النيل والمغرب العربى فى دولة واحدة ، يخضعون لأنظمة واحدة ، وقيم واحدة ، واستمرت هذه الوحدة منذ عهد الخلفاء الراشدين إلى عهد الأمويين ثم عهد العباسيين .

ولما ضعفت الدولة العباسية ، بدأت التجزئة تتسرب إلى الوحدة العربية . بظهور دول عربية انفصالية فى أجزاء مختلفة من الوطن العربى ، ولكن هذه التجزئة لم تكن شاملة .

وذلك لأن الدول الانفصالية التى قامت لم تكن دائماً تنعزل فى حدود الإقليم الذى قامت فيه ، كما لم يكن لكل منها تاريخ خاص منفصل ، وبناء على ذلك بقيت الوحدة هى الطابع العام من حيث أساس الوجود القومى العربى ، ومن حيث وحدة الظروف والأحداث والنتائج التى مرت على الأمة العربية

---

(١) مع القومية العربية للأستاذين الحكم دروزة — حامد الجبورى .

وهذه الدول الانفصالية رغم تعددها كانت تخضع — ولو اسمياً — لدولة واحدة وخليفة واحد ، كما لم يكن فى حركتها معنى من معانى التخلى عن فكرة قيام دولة عربية متحدة ، الفاطميون مثلا الذين جاءوا من المغرب العربى ، وأقاموا الدولة الفاطمية فى مصر ، لم ينعزلوا داخل حدود مصر ، بل امتدوا فى الأرض العربية حتى شملوا المغرب العربى ومصر وسورية والحجاز واليمن .

والطولونيون والأخشيديون والأيوبيون الذين أقاموا حكمهم فى مصر ، لم ينعزلوا أيضاً داخل حدود مصر ، بل امتدوا حتى شملوا قسماً كبيراً من سورية إلى جانب مصر [١].

ولما قامت دولة المماليك فى مصر سنة ٦٥٠ ، كان وادى النيل وليبيا وبلاد الشام والحجاز واليمن موحدة تحت سلطانها فى وحدة متينة شاملة عسكرية وسياسية وإدارية واقتصادية . وجاء الاستعمار العثمانى ، فلم ينحصر فى جزء دون آخر ، بل امتد حتى بسط سلطانه على كل الوطن العربى .

ولما اضمحل الاستعمار العثمانى بعد الحرب العالمية الأولى [٢]

---

(١) المرجع السابق .

(٢) كان قد اضمحل قبل ذلك فى مصر والمغرب العربى .

وجاء الاستعمار البريطانى والفرنسى امتد هذا الاستعمار حتى شمل كل الوطن العربى كوحدة من جزيرة العرب والعراق وبلاد الشام إلى وادى النيل والمغرب العربى .

وهكذا نرى الوطن العربى قد خضع لظروف تاريخية واحدة ، فلما جاء الإسلام ، وقامت النهضة العربية فيما بعد ، شملت هذه النهضة كل الأمة العربية ، وكل مرافق الحياة العربية ، وتجسدت هذه الوحدة فى الظروف الحياتية كأبرز ما يكون فى الفترة الممتدة ما بين صدر الإسلام حتى العصر العباسى ، ولما اضمحلت الدولة العباسية وبدأت عصور الانحطاط ، امتد هذا الانحطاط حتى شمل كل الأمة العربية ، وكل مرافق الحياة العربية .

ولما جاء الاستعمار العثمانى ، بسط سيطرته على كل الوطن العربى ، وتأثرت به الأمة العربية بكل مجموعها وكوحدة ، فرأينا الأقطاع يسود فى مصر ، كما يسود فى سورية وفلسطين ولبنان والعراق . ورأينا نظام الالتزام فى جباية الضرائب يتبع فى مصر كما يتبع فى بلاد الشام وباقى أجزاء الوطن العربى ، وخيم الجهل والظلم الاجتماعى والتأخر على الأمة العربية كمجموع .

ولما جاء الاستعمار البريطانى والفرنسى ، شمل كل الوطن العربى ، وتأثرت به الأمة العربية كوحدة أيضاً ، ورأينا

الاستعمار ينظر إلى الوطن العربى كوحدة لا تتجزأ فحين احتلت فرنسا الجزائر سارعت فيما بعد لاحتلال تونس ومراكش لكى تضمن سيطرتها على الجزائر ، ثم عمدت إلى احتلال سورية ولبنان فى المشرق العربى لتضمن سيطرتها على المغرب العربى .

ولما احتلت بريطانيا عدن عمدت إلى بسط نفوذها على الشاطئ الجنوبى لجزيرة العرب لتضمن مراكزها الاستراتيجية هناك . كما بدأت تتحين الفرصة لاحتلال العراق لتضمن سيطرتها على جنوب الجزيرة العربية .

ولما احتلت بريطانيا مصر ، بدأت تعمل على احتلال فلسطين لضمان سيطرتها على مصر وقناة السويس وعند ما قامت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بالعدوان الثلاثى على مصر فى سنة ١٩٥٦ ، كان هذا العدوان يستهدف إعادة السيطرة الاستعمارية إلى كل الوطن العربى ، كما كان من أهم دوافعه الرئيسية ، العمل على إيقاف التيار القومى العربى ، ومنع اتحاد سورية ومصر فى جمهورية عربية متحدة .

فتاريخ الوطن العربى وحدة واحدة ، نذكره لنستفيد من عبرته ونكون أقدر على حل مشاكلنا ، وندرك أن هذا التاريخ قد حملنا رسالة خيرة لبناء الإنسانية .

٢ — الوطن العربى وحدة ثقافية :

كان لموقع العالم العربى بين الشرق والغرب أثر كبير فى تطوره الثقافى ؛ إذ تأثر بحكم هذا الموقع بالعالم الأسيوى والعالم الأفريقى ، كما تأثر إلى حد بعيد بعالم البحر الأبيض المتوسط ومن أجل ذلك كان للمجتمع العربى خصائص ثقافية معينة تميزه عن الأقاليم المجاورة ، وهذه الوحدة الثقافية دعمتها فى النهاية عناصر الحضارة التى نشأت مع الإسلام وازدهرت فى خلال عصوره ، مما قرب البلدان العربية بعضها مع بعض فى العادات والتقاليد ، وساعد الإسلام على إبراز الوحدة الثقافية فى المجتمع العربى [١].

وقد كانت اللغة العربية وما تزال أعظم العوامل الفعالة فى توحيد العرب ، فالكتاب الذى يؤلف فى لبنان أو المغرب الأقصى أو العراق أو غيرها من الأقطار . يقرأ فى جميع أنحاء الوطن العربى . وأساليب النظم والنثر وفنون الكتابة كانت وما تزال واحدة . وطراز البناء والفنون الجميلة متشاركة فى كل بلد عربى.

(١) المجتمع العربى دكتور على حسنى الخربوطلى .

٣ — الوطن العربى وحدة دينية :

الوحدة الدينية متوفرة فى الوطن العربى بأقوى مظاهرها ، وأوسع مداها ، حيث يدخل فى نطاقها معظم سكان الوطن العربى « ٩٣ فى المائة منهم » . وقد كانت هذه الوحدة وما تزال من أهم مظاهر حياة سكان هذا الوطن فى مختلف أجزائه منذ قرون عديدة . فى المجتمع العربى أقليات مسيحية ويهودية ، بيد أنها قليلة العدد بالنسبة للسكان المسلمين . وليس هناك أى داع حقيقى لتدابر روحى بين المسيحيين والمسلمين العرب بسبب اختلاف الدين ، فالمسيحية والإسلام نابعان من نبع واحد . والإسلام يعترف بقداسة المسيح ونبوته وإنجيله ، كما أنه ليس هناك أى تباين بين المسيحيين والمسلمين فى المصالح العامة سواء أكان فى مجال السياسة والحكم والتنظيم والتشريع ، أم فى مجال الحقوق والواجبات ، أم فى مجال الاقتصاد والاجتماع أم فى مفهوم وأهداف الفكرة العربية وما يعود على المسيحيين والمسلمين من منافع وعز وسؤدد من تحققها. أما اليهود فأغلبهم فى فلسطين . وقد سمح الأتراك لجماعات منهم بالاستيطان فى تلك البلاد فى أوائل القرن العشرين ، ثم زادت بالتدريج هجرتهم وزاد طمعهم فى فلسطين ، وهم يغتصبون الآن جزءاً كبيراً منها وتوجد كذلك أقليات يهودية فى سائر أقطار الوطن العربى .

٤ — الوطن العربى وحدة اجتماعية :

الوطن العربى وحده اجتماعية متماسكة، تشترك فى العقلية والروح والتقاليد والعادات ، والنظم الاجتماعية المختلفة . ومن الجدير بالذكر أن شيئاً من هذا التشارك يمتد إلى ما كان جارياً من عادات وتقاليد ومواسم قبل الإسلام أيضاً . لأن أسبابه قائمة فيما اجتمع فيه أبناء الوطن العربى من وحدة تاريخية ولغوية وجنسية . وستتضح هذه الوحدة عند دراستنا للأسس الاجتماعية للمجتمع العربى ، ومظاهر الحياة الاجتماعية لهذا المجتمع .

الفصل الثانى

الأسس التاريخية للمجتمع العربى

١ ـ المجتمع العربى قبل الإسلام

كان عرب الجزيرة قبل الإسلام على منزلة عالية من ذكاء الفطرة ، وقوة الفراسة وسداد التفكير وإن لم يكونوا أهل علم ودرس ، كما كانوا أصحاب إباء وشمم ومروءة ومكارم ، يبذلون الأرواح والأموال فى سبيل ما يعتقدون أنه شرف ومروءة ، وقد يغالون فى اندفاعهم فى سبيل الغايات المثالية حتى يقعوا فى إسراف يدفعهم إلى المساوئ ،

فالعرب قبل الإسلام قوة لم توضع فى موضعها ، قوة فى العقل ، وقوة فى الخلق ، بيد أنها ضلت سبيلها ، وانحرفت عن الوجهة المثلى . وبناء على ذلك فتكون « الجاهلية » التى اتصف بها العصر الجاهلى ، بمعنى وضع الأشياء فى غير مواضعها ، وعدم مراعاة ما تقتضيه الحكمة وليس معناه نفى العلم . وعلى هذا الأساس فليس معنى الجاهلية الانحطاط والوحشية كما يظن بعض الكتاب ، كما أن إطلاقها على ذلك العهد صحيح لا غبار عليه .

ولقد صنع العرب قبل الإسلام حضارات فى أجزاء مختلفة من أرضهم ، ولكنها كانت كلها إقليمية غير شاملة للعرب ولا عامة فى جميع بلادهم ، وكانت مقتصرة على ناحية من نواحى الحياة كالصناعة والزراعة والتجارة ، فلم تكن ذات فكرة أو رسالة . وكانت متأثرة بغيرهم من الأمم كالروم وفارس[١]

ونحن إذا قلبنا صفحات التاريخ نجد أنه كان للعرب أربعة أو خمسة مراكز يؤلفون فى كل منها بيئة خاصة لها مميزاتها :

١ ــ فى الشام عرب الغساسنة وهم أهل حضارة ومتأثرون فى الكثير من أحوالهم بالبيزنطيين .

٢ ــ فى العراق عرب الحيرة أو المناذرة وهم متأثرون بعض التأثر بالفرس .

٣ ــ فى الجنوب فى اليمن مملكة صغيرة مستقلة كانت لها مدنية قديمة ولكنها تعرضت لهجوم الحبشة وتأثير نفوذ الفرس فضعف شأنها .

٤ ــ وأما الحجاز فكان يتألف من مدن تحضرت فيها بعض القبائل البدوية حتى أصبحت مركزاً تجارياً دينياً

---

(١) الأمة العربية فى معركة تحقيق الذات الأستاذ محمد المبارك .

ويجرى بين هذه المراكز والبيئات العربية مادة سيالة متحركة ، هى القبائل البدوية المنتشرة من أقصى الجزيرة فى جهة الجنوب إلى أقصى الشمال والشمال الشرقى منها .

وكان للحجاز فى البلاد العربية موقع خطير ، ذلك أنه البوتقة التى كانت تنصهر فيها القبائل العربية ، فتنحصر وهى همزة الوصل بين الحياة العربية البدوية والحياة الحضرية ، وهى بذلك تجمع إلى محاسن حياة البدو ، من قوة ونشاط وحركة وتضحية وأخلاق قويمة ، محاسن حياة الحضر من تنظيم وحياة نامية بعض النمو فى الناحيتين الاقتصادية والدينية ، وتتجنب مساوئ البداوة من الفوضى والإمعان فى القتل واستمرار حياة الغزو ، بما وجد فيها من أنظمة دينية تقتضى السلم كنظام الحرم والأشهر الحرام ، وأنظمة اقتصادية وقضائية وإن تكن بسيطة ، وتتجنب مساوئ الحضارة فى الاستسلام إلى الرفاهية والدعة[1] . وتجمع إلى ذلك مزية خاصة بها وهى أنها أقل البلاد العربية تأثراً بالمؤثرات الأجنبية ، بل هى يومئذ أصفى البيئات العربية الحضرية جميعاً .

وخلاصة القول أنه لم تنشئ وحدة عامة تشعر العرب قبل الإسلام شعوراً قوياً بأنهم أمة واحدة ، ولم يظهر الشعور

---

(١) المرجع السابق .

المشترك العام الذى يشملهم جميعاً ، فكانت مدنياتهم موضعية خاصة ، وفى كثير من الأحيان ولا سيما قبل الإسلام . متأثرة بتأثيرات أجنبية : فارسية أو بيزنطية وبمعنى أوضح لم تظهر بعد رسالتهم الكبرى التى تحتاج قبل كل شىء إلى جسم حى متصل الأجزاء منسجم الأعمال والوجهات ، وذلك أمر لم يتم إلا بالإسلام .

٢ ــ أثر الإسلام فى المجتمع العربى

جاء محمد عليه السلام والعرب موزعون من أقصى اليمن إلى بلاد الشام والعراق ، وكانت هذه الكتل العربية فى أمس الحاجة إلى من يجمعها ويقطع عنها التأثيرات الأجنبية التى تحيط بها ، ويفرض عليها نظاماً يوحد بينها من اختلاف فى النظم والتفكير والعادات وقد كان أثر الإسلام وصاحب الدعوة أكثر من ذلك كله ، إذ أنه ما اقتصر على هذا الجمع والتوحيد بل تجاوزهما إلى مرحلة التوسع الحيوى، إلى مرحله جعل فيها من العرب قواداً ومشرعين عالميين [١] .

وباعتناق الإسلام تولد بين العرب شعور بالتضامن سما على المنازعات القبلية والعصبيات العشائرية ، وكان نتاج

(١) المرجع السابق

ذلك مولد الأمة العربية التى منحها الدين الجديد هدفاً هو أبعد وأسمى من العرب أنفسهم ، ودلهم على غاية رفيعة من شأنها أن تخلق العالم خلقاً جديداً فانفتحت مواهبهم وانطلقت قواهم المكبوته من عقالها ، ووجدت حيوتهم الحبيسة منذ قرون منفذاً لها فى أداء رسالة رفعت الأمة إلى مقام الخلود ودفعت العالم خطوة كبيرة إلى الأمام[١] .

وإذ كان مطلع القرن السابع يشهد توحيد شعب عظيم فى الجزيرة العربية ، كان يشهد أيضاً الانحلال فى العالم المحيط به ، فى ذلك الوقت ، كانت دولتا الفرس والروم أعظم دول العالم ، وكانتا وما تزالان محافظتين على مظاهر الهيبة عندما جاء العرب يقرعون عليهما الباب . وكانت أراضيهما شاسعة ، وجيوشهما مدربة ، ومواردهما المادية أكثر بكثير مما كان يملكه العرب .

وفوجئ الفرس والروم بأخبار الغزوات العربية الأولى ، إلا أنهم لم يذعروا لها لاستخفافهم بقوة العرب . بيد أنه عندما تكللت هذه الغزوات بالنجاح زادت مخاوفهم غير أنهم اعتقدوا بأن إظهار القوة من جانبهم كفيل بإلقاء الخوف فى قلوب العرب ، ولكن القوة العربية النامية حطمت هاتين الدولتين

---

(١) العالم العربى : نجلاء عز الدين .

ومضت فى طريقها تنشر كلمة الله فى الأرض .

وخلاصة القول أن الإسلام بعث العرب كأمة وكأفراد بعثاً جديداً . إذ وحد الإسلام القبائل فى مجتمع كبير ، وألف بين قلوب العرب ، وقضى على العصبية الجاهلية ، وخضعوا لحكم الرسول الكريم وأوامر القرآن بعد أن كانوا يدينون بالطاعة والولاء لرؤساء متفرقين . وبذلك قامت فى الجزيرة العربية حكومة مركزية مرهوبة الجانب وسما الإسلام بالإنسانية وارتفع بكرامة الفرد والمجتمع ، وقضى على الفردية والفساد الاجتماعى . وقد دعا الإسلام الناس إلى أن يكونوا إخوة متحابين متعاونين على الحياة وساوى بينهم فى الحقوق والواجبات وشرع كثيراً من الشرائع الاجتماعية التى تزيد من قوة المجتمع وتماسكه كالزكاة والحج وصلاة الجمعة والجماعة والإحسان . وأزال الفوارق الاجتماعية بين الناس والشعوب .

« فحيث حل الإسلام تأكدت قيمة الفرد ، ونهض الناس معتزين بكرامة لا تقهر » [١].

قبل الفتوح الإسلامية ، لم يكن العرب هم سكان الجزيرة العربية فحسب ، بل كان هناك أعضاء فى المجتمع العربى يعيشون خارج الجزيرة العربية ، فقد أخذت الموجات العربية

(١) Harrison-The Arab at Home P.250

تنساح إلى الأقطار المجاورة كالعراق والشام ومصر وغيرها . ولكن الموجة العربية الجارفة التي جاءت عقب الإسلام ، شملت جميع أرض الوطن العربي الذي انتشرت فيه الموجات العربية السابقة ، بيد أنها تميزت بثلاث مميزات أساسية ، جعلتها تختلف اختلافاً نوعياً لا كمياً فقط عن الموجات العربية السابقة ، مما كان له أثر كبير في حياة الأمة العربية .

أولا : أن الموجة العربية التي جاءت مع الإسلام لم تكن في خروجها كمعظم الموجات السابقة ، تستبدل أرضاً بأرض ، لضيق العيش ، أو هرباً من خطر معين . . . إلخ . وإنما كانت امتداداً منظماً ، وفيضاً هادفاً ، خرجت تستبدل قيماً ومقاييس بأخرى ، وعادات وتقاليد بأخرى ، ونظماً ومفاهيم بأخرى ، وكانت فيضاً تحركه دوافع روحية عميقة أمدتها بقوة كبيرة لم تتوفر لأي من الموجات السابقة .

ثانياً : أن الموجة العربية التي اندفعت مع الإسلام كانت موجة عامة شاملة للوطن العربي بحدوده الحالية ، ولم تكن موجة جزئية كالموجات السابقة تتركز في وادي النيل أو على أطراف العراق أو الشام ، ولذلك كان تأثيرها شاملا لكل الوطن العربي ، وانعكس كوحدة في كل الأرض العربية وفي كل الأقوام التي كانت تسكن الأرض العربية .

ثالثاً : أن الموجة العربية التى جاءت مع الإسلام ، أثرت فى الأقوام التى كانت تسكن الوطن العربى تأثيراً قومياً عميقاً لا تأثيراً سياسياً فحسب فتمثلت اللغة العربية اللغات اليونانية واللاتينية والآرامية التى كانت تتكلمها تلك الأقوام تمثلا تاماً ، واندثرت تلك اللغات المتفرقة لتحل محلها اللغة العربية الواحدة وامتصت الموجة العربية الجديدة بقايا الموجات العربية القديمة ، والتى كانت أقواماً غير متماسكة ذائبة فى الحضارة اليونانية والرومانية فصهرتها فى البوتقة العربية ، وطبعتها بالطابع العربى الأصيل .

وهكذا كان تأثير الموجة العربية التى جاءت مع الإسلام تأثيراً قومياً ، قام على تفاعل عميق مع مختلف مظاهر حياة الأقوام التى كانت تسكن الوطن العربى وغيرها تغييراً جذرياً .

وقد اقتصر تأثير العرب القومى على الأقوام الذين يسكنون الوطن العربى فقط ، أما تأثيرهم على الأقوام خارج الوطن العربى فقد اقتصر على إعطاء تعاليم الإسلام ، ولم يكن تأثيراً قومياً .

فلم يستطع العرب أن يذيبوا فى البوتقة العربية سكان أسبانيا مثلا ، مع أن الحكم العربى دام هناك سبعة قرون . وقد انحسرت الموجة العربية عن الأراضى التى امتدت إليها خارج حدود الوطن العربى ، وانحصرت فى الأرض العربية . والسبب

فى ذلك واضح ، فإن الأقوام التى كانت تسكن فى الأرض الخارجة عن الوطن العربى ، كانت غريبة تماماً عن الطابع العربى والشخصية العربية ، وكان لها طابعاً آخر خاصاً بها ، فكان من الطبيعى أن تقاوم أية محاولة تقوم بها الموجة العربية للتأثير فيها قومياً وإذابتها ، ولذلك فإن هذه الأقوام حاربت الحكم العربى، وانفصلت عنه عندما سنحت لها الفرصة . أما الأقوام التى كانت تسكن الوطن العربى . فلم تكن الموجة العربية غريبة عنها كل الغرابة فى جوهرها ، وقد رأينا كيف كان الوطن العربى مصب الموجات العربية المتلاحقة قبل الفتح العربى بزمن طويل ، مما جعل هذه الأقوام مهيأة لأن تمتص امتصاصاً قومياً كاملا من قبل الموجة العربية الجارفة .

ومما لا شك فيه أن الموجة العربية التى جاءت مع الإسلام ، تمثل نقطة تحول كبيرة فى تاريخ تطور القومية العربية ، ذلك لأن هذه الموجة عملت على مد الشخصية الجماعية للأمة العربية من نطاق جزيرة العرب حتى شملت كل الوطن العربى بحدوده الحالية .

وهكذا حملت هذه الموجة العربية معها فى خروجها معالم قوميتها العربية التى تحددت فى جزيرة العرب وطبعت بها كل الأقوام التى كانت تسكن الوطن العربى ، بحيث أصبحت القومية تشمل سكان المغرب العربى ووادى النيل والعراق وبلاد

الشام إلى جانب سكان جزيرة العرب ، وتبلورت الروابط القومية التى كانت تجمع قبائل الجزيرة العربية ، كما امتدت هذه الروابط القومية العربية بحيث أصبح يتشارك بها كل سكان الوطن العربى ، ويؤلفون بموجبها وحدة اجتماعية متميزة[١] .

* * *

وكانت الميزة الأولى لعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى من زاوية تطور القومية العربية، أنهما وفرا — عن طريق وحدة الحكم والتشريع — الجو اللازم ، لكى يأخذ التأثير القوى للموجة العربية الذى ابتدأ بالإسلام مداه الواسع الفعال فى حياة سكان هذه البلاد فى ذلك الوقت .

وعند ما جاء الحكم العباسى ، كانت الشخصية العربية قد نضجت ، وبدأت البذور التى رويت فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين تعطى ثمارها ، فإذا القوى العربية الزاخرة التى حملت رسالة الإسلام قبل بضعة قرون تتفجر مرة أخرى بشكل جديد ، بشكل نتاج حضارى ضخم وصل بالحضارات الأولى التى قامت على ضفاف النيل وما بين النهرين وجنوب جزيرة العرب ، بالحضارات اليونانية والهندية والفارسية بالحضارة العربية فى العصر العباسى ، كما مهد لقيام النهضة الأوربية فيما بعد .

---

(١) « مع القومية العربية » للأستاذين : الحكم دروزة حامد الجبورى .

٣ — فضل العرب على الحضارة الغربية

لم تكد تمضى مئة سنة على خروج العرب من الجزيرة العربية ، أى فى القرن الثامن للميلاد ، حتى أصبح العراق مركزاً لأعظم نشاط فكرى فى ذلك العصر ، إذ أنه بالنظر إلى ما اتصف به المجتمع العربى الجديد من قوة وعزم متقد ؛ تقاطر أهل العلم والمعرفة من مختلف البلدان إلى مدن العراق الحديثة : البصرة والكوفة وبغداد . والنصف الثانى من هذا القرن هو عصر جابر بن حيان المعروف عند الأوربيين فى العصور الوسطى ، وهو من أعظم رجال العلم فى تلك العصور ، وقد دون آراء جد صائبة فى أساليب البحث الكيميائى ، وتأثير جابر واضح فى تاريخ الكيمياء . كما كان للعرب دور كبير فى الأمور الكيميائية النظرية ، والعمليات والتطبيقات والتحليل ، وكانوا فى الكثير منها معبرين عن إبداع عبقرى فقد عرفوا التقطير والترشيح والتصعيد والتذويب والبلورة والتكليس [1] .

---

(١) مراجع هذا البحث : العلوم عند العرب — الدكتور قدرى حافظ طوقان والعالم العربى — نجلاء عز الدين Out lines of History-Wells و « تاريخ الأدب العربى » للكاتب الألمانى بروكلمان .

والنصف الأول من القرن التاسع يعرف بعصر الخوارزمى ، وهو من أعظم الرياضيين فى كل العصور ، وكان أثره فى الفكر الرياضى أبعد أثراً من أى كاتب آخر فى القرون الوسطى . وأوجد العرب «الصفر» والإحصاء العشرى ، وهم أول من سمى الجبر « جبراً » . والخوارزمى هو الذى وضع هذا العلم . ولولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الآن ، ولا يخفى ما لهذا العلم من أثر فى الاختراع والاكتشاف وفى تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية والصناعية .

وفى الفلك نهض العرب نهضتهم المعروفة وأحدثوا فيه انقلاباً هائلا ، وساعدوا على تقدم الجغرافية وأصلحوا الكثير من أخطاء بطليموس وكشفوا مناطق لم تكن معروفة فى بعض القارات ، ووضعوا مؤلفات الجغرافية النفيسة ووضحوها بالخرائط وربطوا الجغرافيا بالفلك وسبقوا بذلك علماء اليوم .

وبين الشخصيات اللامعة التى تزين هذا العصر يبرز الكندى ، الذى ينسب إليه ٢٧٠ مؤلفاً فى الرياضيات والفلك والطب والموسيقى والفلسفة والجغرافيا ؛ وقد ترجم جيرار إمام مترجمى العصور الوسطى — عدداً من كتبه إلى اللاتينية .

وقال كاردان — أحد فلاسفة عصر النهضة — إن الكندى أحد العقول الاثنى عشر الأشد ذكاء .

ونبغ العرب فى الطب ، وما زال اسم الرازى علماً يرمز إلى تقدم العرب فى هذا المضمار ، ويعد الرازى فى مرتبة كبار الأطباء فى كل العصور لمعرفته الشاملة ودقة ملاحظاته فى الفحص الطبى ، وله موسوعة فى الطب دعاها « الحاوى » وهو كتاب طبع مراراً فى ترجمته اللاتينية وكان له أعظم الأثر فى الطب عند الأوربيين . وتعتبر رسالته فى الجدرى والحصبة أول بحث واضح عن هذين الداءين . وقد ترجمت إلى اللاتينية ثم إلى عدد من اللغات الأخرى بينها الإنجليزية وطبعت نحو ٤٠ مرة بين عامى ١٤٩٨ و ١٨٦٦ .

وما زالت مفكرته السريرية التى دون فيها أحوال مرضاه محفوظة ، وقد طبق أسلوبه الاختبارى هذا على جميع العلوم التى بحث فيها .

ويقول الكاتب البريطانى « ويلز » عن أثر العرب فى الحضارة الأوربية : ظهر فى العالم الإسلامى عدد من الجامعات الكبرى فى مراكز عدة فى البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة . وقد تفرعت هذه الجامعات من مدارس دينية أنشئت فى المساجد أولا ، وقد أرسلت تلك الجامعات أشعتها الذهبية إلى ما وراء العالم الإسلامى ؛ وقد جذبت أنوارها المتلألئة الطلاب الوافدين إليها من الشرق والغرب ، وكان فى قرطبة على الخصوص عدد لا يستهان به من الطلبة المسيحيين ؛ وكان أثر الفلسفة

العربية الذى فاض من أسبانيا على جامعات باريس وأكسفورد وشمال إيطالية ، وعلى الأفكار فى غرب أوربة ، كان هذا الأثر عظيماً حقاً .

وكان اسم ابن رشد فى قرطبة (١١٢٦ – ١١٩٨ م) أعظم من بلغ الذروة فى تأثير الفلسفة العربية على الفكر الأوربى .

وقد انتعشت صناعة نسخ الكتب وازدهرت فى الإسكندرية ودمشق ، والقاهرة ، وبغداد وفى حوالى سنة ٩٧٠ م كان فى قرطبة وحدها سبع وعشرون مدرسة مجانية مفتحة الأبواب لتعليم أبناء الشعب .

وفى الوقت الذى حرمت فيه الكنيسة على الأوربيين احتراف مهنة الطب لاعتقاد رجال الدين أن الشفاء يتم بتعاويذ دينية كانوا يقومون بها فى ذلك العصر المظلم ، كان عند العرب علم حقيقى فى الطب .

وقد فاق العرب العالم فى المصنوعات من حيث التنويع ، وجمال التنسيق ودقة الصنع ، وقد اشتغلوا فى كل المعادن : فى الذهب والفضة والنحاس والبرنز والصلب . ولم يفقهم أحد فى صناعة المنسوجات إلى الآن . وكان الزجاج والخزف اللذان

صنعوهما من أجود الأصناف . وعلموا أسرار الصباغة ، وصنعوا الورق ، وأجروا عمليات كثيرة لدبغ الجلود وكان عملهم ذائع الصيت فى أوربا كلها وصنعوا الروائح والأشربة والسكر من القصب ، وزرعوا أنواعاً بديعة من الكروم ، وفلحوا أرضهم بطريقة علمية وكان نظام الرى عندهم بديعاً ، وعرفوا فضل زراعة الأزهار ، ونوعوا محصولاتهم تبعاً لنوع التربة وبزوا غيرهم فى علم التلقيح فقد عرفوا كيف يحدثون أنواعاً جديدة من الفواكه والأزهار ونقلوا من الشرق إلى الغرب كثيراً من الأشجار والنبات . وصنفوا فى الزراعة كتباً علمية .

والعرب أول من لاحظ أن حوادث التاريخ مقيدة بقوانين طبيعية ثابتة ، وأن باطن التاريخ ليس فى واقع الأمر إلا نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها وعلم فى كيفية حدوث الوقائع وأسبابها .

وابن خلدون العربى ، كان أول من قال بوجوب اتخاذ الاجتماع الإنسانى موضوعاً لعلم مستقل ، وذهب إلى أن الأحوال الاجتماعية تتأتى من علل وأسباب . وقد أدرك هذا العالم العربى الكبير قبل غيره من علماء أوربا بعدة قرون ، أن هذه العلل والأسباب تعود فى الدرجة الأولى إلى طبيعة العمران أو طبيعة الاجتماع . وقد درسها دراسة مستفيضة واعية خرج منها بكشف بعض القوانين المتعلقة بها .

ولم يكن الجهد العلمى سوى ناحية واحدة من حياة الأمة العربية النشيطة ، فالاتصال بالعرب أثر فى حياة أوربا من وجوه عدة ، وتعددت وسائل نقل الثقافة . وكانت الحركة التجارية من أكثر هذه الوسائل استمراراً وأشدها مفعولا . وقد وجد الأوربيون فى الشرق العربى ثقافة أرقى من ثقافتهم ، وكانت الحياة هنا أغنى وأكثر إشراقاً من أوربا .

ومن العسير تقدير نصيب الحروب الصليبية فى نقل الثقافة العربية إلى أوربا . فهم دفعوا بالتجارة دفعات قوية إلى الأمام وأنعشوا أوجه النشاط فى مدن إيطاليا التجارية كالبندقية وجنوا وغيرها .

ويظهر أثر الحروب الصليبية فى الحمامات البخارية العامة التى بدأت تنشأ فى أوربا ، وفى تأسيس المستشفيات على غرار تلك التى أنشأها العرب فى بلادهم .

غير أن أكثر وسائل هذا النقل فعالية كانت بوساطة المركزين اللذين أنشأهما العرب فى أوربا نفسها : وهما أسبانيا وصقلية .

وهكذا فإن الحضارة الإسلامية العربية التى ظلت مبدعة خلال قرون عديدة ، ساهمت مساهمة أساسية فى الفكر الغربى ، والحياة الأوربية ، وكثرة عدد الكلمات ذات الأصل العربى فى اللغات الأوربية ، كلمات تتعلق بشتى ميادين النشاط

العقلى ، بالفن المعمارى والفنون الأخرى . والزراعة والصناعة والتجارة ، بالحكومة والإدارة وبشئون الحياة اليومية . هذه المصطلحات تدل على الأثر الدائم الذى تركه العرب فى جميع نواحى الحياة . ولكن هل بقى العرب موحدين ذوى حضارة ومدنية ؟

يجيب التاريخ . . لا . .

فقد استعان العباسيون بالفرس لإسقاط الدولة الأموية ، فبدأ المجتمع العربى يدخل فى طور جديد ؛ واعترف الخلفاء العباسيون بفضل الفرس ، وتولى بعض الفرس أرقى مناصب الدولة وخاصة الوزارة ، وانتشرت العادات والتقاليد والثقافة الفارسية فى المجتمع العربى .

غضب العرب لانتصار القومية الفارسية على القومية العربية ، وبدأ صراع جبار بين القوميتين ، ونتج عن هذا الصراع ظهور « الشعوبية » وبذلك انتصر الفرس على العرب سياسياً وإدارياً ولكن العرب انتصروا قومياً واجتماعياً ودينياً ولغوياً فانتصر الإسلام على المجوسية وتغلبت اللغة العربية على اللغة الفارسية .

ولم يكن الشعوبيون مجتمعاً واحداً ، بل كانوا يمثلون مجتمعات صغيرة ذات أجناس مختلفة ، وصبغت شعوبية كل جنس بصبغة وطنية تدعو إلى الاستقلال .

وقد استعان الخليفة العباسى « المعتصم » بالأتراك ، بعد أن ضاق ذرعاً بالعرب والفرس . وسرعان — ما زاد عدد الأتراك ، وبدأوا يلعبون دورهم فى ميدان الشعوبية أيضاً . وهكذا بدأ المجتمع العربى يدخل فى طور جديد . . طور الجمود والتفكك .

٤ ــ المجتمع العربى فى العهد العثمانى

أدى صراع القوميات العربية والفارسية والتركية إلى ضعف الدولة العباسية ، وتفتت المجتمع العربى . وانقسمت الدولة العربية إلى عدة دول : كدولة الأدارسة فى المغرب ، والدولة الفاطمية فى مصر ، وحكم الحمدانيون الموصل وحلب ، ودولة الأغالبة فى ليبيا وتونس . أما العراق فقد حكمها الأتراك باسم الخليفة العباسى ونازعهم السلطان عليها الحمدانيون وهم عرب ثم استولى عليها البويهيون وهم فرس .

ثم جاءت نهاية الدولة العباسية على أيدى المغول ، فقد دخل هولاكو بغداد حاضرة المجتمع العربى ، ودمرها فى العاشر من المحرم سنة ٦٥٦ ﻫ .

وفى ٢٦ ربيع الأول سنة ٦٥٨ ﻫ دخل هولاكو دمشق ، وبسط حكمه على شمال الشام كله ، وأراد هولاكو أن يحتل مصر ، فأرسل جيشاً ضخماً يبسط نفوذه عليها ، ولكن الجيش العربى هزمه هزيمة نكراء فى معركة « عين جالوت » فى ٦ سبتمبر سنة ١٢٦٠ وبذلك انحسر التيار المغولى عن الوطن العربى .

وكما تعرض المجتمع العربى لأخطار غزو المغول ، تعرض أيضاً للغزو الاستعمارى الأوربى وقد استعان العرب فى كفاحهم

يومئذ ضد المغول تارة وضد الصليبيين تارة أخرى بطوائف من الأكراد والترك وأخلاط من الأجناس التى أنشأت فيما بعد دولة المماليك ، وترك العرب هذه الأجناس المأجورة والمملوكة تتحكم فيهم فيما بعد ، وقنعوا هم بالعمل فى فلاحة الأرض والصناعة والتجارة ، وتركوا شئون الحكم والدفاع لتلك الطوائف التى طرأت على المجتمع العربى منذ العصور الوسطى .

على أن الحضارة العربية الإسلامية بقيت قائمة بحيث استطاعت أن تصهر هذه العناصر الغريبة وتحولها إلى قوة تمثل العروبة والإسلام .

ولم يكد التيار المغولى والخطر الصليبى ينحسران عن الوطن العربى ، حتى دهم العرب خطر جديد أودى بحياتهم الاقتصادية ، وحرمهم من أهم مورد كانوا يعتمدون عليه فى تدعيم سلطانهم فقد اكتشف البرتغاليون فى أواخر القرن الخامس عشر طريق رأس الرجاء الصالح وحرموا العرب نصيبهم فى تجارة الهند والشرق الأقصى ، ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يسيطرون على بعض أطراف الوطن العربى ويضعون فيها الحاميات ويحاصرون العرب حصاراً عسكرياً واقتصادياً وفى أوائل القرن السادس عشر قسم الوطن العربى بين دول ثلاث : الدولة الصفوية الإيرانية والدولة العثمانية التركية والدولة المملوكية المصرية .

أما الدولة الصفوية فقد استطاع مؤسسها إسماعيل الصفوى

أن يتجه إلى العراق فيفتحها ويرفع علم الدولة الصفوية على بغداد فى عام ١٥٠٨ .

أما الدولة العثمانية فقد قضت على الدولة المملوكية المصرية فى سنة ١٥١٦ ، ومن ذلك التاريخ انتقل الوطن العربى بكافة بلاده إلى الإمبراطورية العثمانية وانتقلت الخلافة إلى آل عثمان .

وفى سنة ١٥٣٤ احتل السلطان سليمان القانونى بغداد .

وامتد الفتح العثمانى حتى شمل الحجاز واليمن وشمال أفريقية ، وبذلك تم له السيطرة على الوطن العربى كله .

واستمر الحكم العثمانى للعالم العربى أربعة قرون ، منذ أوائل القرن السادس عشر (١٥١٦ م) إلى انهيار الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى حيث اقتسمت دول الحلفاء ممتلكاتها .

وقد استغل العثمانيون الدين الإسلامى ، كوسيلة لتحقيق أهدافهم ، وكانت الخلافة الإسلامية قد انتقلت إلى آل عثمان ، فراحوا يعملون على استقطاب العرب حول شخصية السلطان العثمانى باسم خليفة المسلمين وماله من شخصية روحية معنوية ، كما عمدوا إلى تثبيت ركائز استعمارهم باسم الدين الواحد الذى يجمع غالبية العرب بالعثمانيين .

وساد الظلم الاجتماعى ، وتمثل فى الإقطاع الهائل ، والالتزام

فى جباية الضرائب ، إذ منح العثمانيون الإقطاعيات الكبيرة للضباط الذين كانوا يخدمون فى الجيش العثمانى ، وللولاة والباشوات الذين يتولون حماية مصالح الإمبراطورية فى الوطن العربى .

وكان من الطبيعى أن ينتشر الفقر ، وتنحط الحياة القومية العربية ، لأن هذه الحياة وحدة متماسكة بأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ورافق انتشار الإقطاع الكبير والفقر ، نظام الالتزام فى جباية الضرائب ، فكان الوالى أو الحاكم المكلف بالجباية يلتزم بتقديم مبلغ معين للحكومة كضريبة ، وكان بدوره يفرض على الشعب ، والفلاحين بصورة خاصة ، الضريبة التى يشاء ، فيعطى ما التزم به للسلطان ويحتفظ لنفسه بالباقى ، وكان على الشعب أن يدفع دون أى مناقشة مهما كانت ظروفه . ورافق هذا الظلم الاجتماعى البشع فساد فى الإدارة وفقدان فى الاستقرار ، فقد لجأ العثمانيون لضمان سيطرتهم ، إلى تغيير الولاة والحكام بشكل دائم ومستمر ، ذلك لكى لا يتيحوا لهؤلاء الولاة فرصة تثبيت أقدامهم فى الحكم ويستقلوا عن الباب العالى ، كما عمدوا إلى ترسيخ العادات والتقاليد البالية الجامدة ، وفرضوا الحجاب على المرأة ، ورسموا سياسة محكمة لنشر الأمية حتى عم البلاد جهل مطبق . ولم يكتفوا بذلك ، بل بدأوا فى أواخر عهد الإمبراطورية يغزون أسس الوجود القومى العربى ، فقاموا

بحملات واسعة لتتريك العرب بالقوة بمحاولة طمس اللغة العربية ونشر اللغة التركية وإجبار العرب على تعلمها وجعلها اللغة الرسمية فى الوطن العربى . وكبتوا الشعور القومى العربى بقسوة ، وأقاموا المشانق فى الشوارع ، وجندوا الشعب العربى قسراً فى الجيوش التى كانوا يوجهونها لرد الحملات عن الإمبراطورية العثمانية .

ومن الطبيعى أن يرافق كل ذلك الانحطاط الذى امتد إلى مختلف مرافق الحياة العربية ، انحطاط فكرى ، فقد أسدلت هذه القيود التى فرضها العثمانيون على العقل العربى ستاراً كثيفاً من الجمود أفقده حيويته وانطلاقه .

وجاء القرن التاسع عشر ، ورأينا القومية العربية التى حاول العثمانيون محوها بتشويه جوهر الدين الإسلامى ، وتدعيم الظلم الاجتماعى ، وحملات التجهيل والتتريك ، تتململ فى واقعها الفاسد تحاول الانطلاق من حيز الانزواء والجمود إلى حيز التجسيد .

وقام الشعب العربى بمحاولة النهوض لإزاحة الاستعمار العثمانى المتداعى ، وبدأت سلسلة من الحركات الاستقلالية ، كحركات الأمير بشير الشهابى والجزار وضاهر العمر ، ورأينا دولة تحاول أن تنفض عنها جمود الاستعمار العثمانى تقوم فى مصر ، وأخرى فى الجزائر .

وفى نفس الوقت الذى بدأت فيه القومية العربية تصحو وتثور ضد العثمانيين ، أخذت قوى استعمارية جديدة تدخل الميدان ، وابتدأت بحملة نابليون على مصر ، ومحاولة بريطانيا غزو الشواطئ الجنوبية لجزيرة العرب .

ومضت القوى الثلاث تتصارع ...

الشعب العربى فى جهة ، والاستعمار العثمانى من جهة ثانية ، والاستعمار البريطانى الفرنسى من جهة ثالثة ، ولم يستطع الاستعمار العثمانى الصمود فى وجه الاستعمار الغربى ، فبدأ يتراجع تدريجيًّا ويخلى الميدان للصراع بين الشعب العربى الذى انهك قواه هذا الاستعمار ، وبين الاستعمار الجديد .

وتمكنت فرنسا من احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ . واحتلت بريطانيا عدن وما يجاورها سنة ١٨٣٩ ومصر سنة ١٨٨١ ، والسودان ، وأخذت بريطانيا ترنو ببصرها نحو فلسطين لضمان سيطرتها على مصر ، واحتلال العراق لضمان سيطرتها على جنوب وشرق جزيرة العرب . واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨٢ ، ومراكش فى سنة ١٩١٢ ، واحتلت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١ . وبعد الحرب العالمية الأولى وانهزام تركيا احتلت بريطانيا فلسطين وشرق الأردن والعراق ، واحتلت فرنسا سورية ولبنان . ولم تمض على الحرب العالمية الأولى سنوات معدودة ، إلا وكان الوطن

العربى يرزح تحت عبء الاستعمار عدا الحجاز ونجد واليمن .

وهكذا خرج الاستعمار العثمانى ليحل محله مباشرة الاستعمار الغربى ، فلم تسنح الفرصة للشعب العربى لالتقاط أنفاسه ، وابتدأ الاستعمار الغربى يعمل على دفع الأمة العربية فى طريق الانحطاط من حيث انتهى الاستعمار العثمانى ، بعد أن استفاد من تجارب هذا الأخير وابتكر أساليب جديدة .

وكما استغل العثمانيون الدين الإسلامى لتخدير الشعور القومى العربى ، عمد الاستعمار البريطانى الفرنسى إلى تخدير هذا الشعور بنشر الثقافة الغربية والتربية الغربية ، وكما حاول العثمانيون من قبل تتريك العرب بطمس اللغة العربية ، عمل الاستعمار الفرنسى على فرنسة العرب باحلال اللغة الفرنسية محل العربية ، ومحاولة القضاء على مظاهر العروبة بفرض الطابع الفرنسى ، ويحاول الاستعمار البريطانى مسخ عروبة عدن والبحرين ليصبح العرب فى بلادهم أقلية ، ومن أجل القضاء على القومية العربية هناك .

وأبقى الاستعمار الغربى الأوضاع والأنظمة الاقتصادية على ما كانت عليه من قبل . فاستبدل الفرنسيون فى المغرب والجزائر بصورة خاصة ، الإقطاع العثمانى بالإقطاع الفرنسى كما بقى الإقطاع يسود الأجزاء الأخرى من الوطن العربى .

وحلت الشركات الاستعمارية محل الملتزمين فى جباية الضرائب ، وراحت تستنزف الثروات العربية التى كان يستنزفها الاستعمار العثمانى . ووقفت عقبة كأداء فى وجه كل نهضة صناعية عربية ، لكى يظل الوطن العربى مصدر خامات لصناعة الغرب وسوقاً لمنتجاته . وبقيت الأمية هى الطابع العام للمجتمع العربى ، بالرغم من محاولة نشر الثقافة الغربية . كما عمد الاستعمار الغربى إلى ترسيخ العادات والتقاليد البالية ، وطمس القيم العربية الصحيحة وبث روح الانهزامية والتخاذل .

وعمد الاستعمار الغربى ، إلى تجزئة الوطن العربى . ولكن هذه التجزئة الجغرافية التى اصطنعها الاستعمار من أجل مصالحه الذاتية ، لا يمكن أن تثبت أمام الشعور العربى حين يتجه للوحدة بشكل قوى ، وقد عرف الاستعمار هذه الحقيقة ، فعمد إلى تجزئة مظاهر الحياة القومية العربية . فقام بتجزئة اقتصادية حصرت الثروة العربية فى حدود الكيانات القائمة ، ليسهل عليه استغلالها ،وبربط تلك الكيانات باقتصاده . ثم أقدم على أخطر خطوة فى سياسة التجزئة ، وهى التجزئة القومية عن طريق النزعات الإقليمية التى خلقها ، أو التى مهد لوجودها بعمله على كبت الوعى القومى ، كالنزعة الإقليمية الفرعونية فى مصر ، والآشورية فى شمال سورية والعراق ، والنزعة القومية اللبنانية ، والنزعة البربرية فى مراكش .

وبعد أن ضمن الاستعمار الغربى عزل الأجزاء العربية

بعضها عن بعض ، عمد إلى تجزئة هذه الأقطار نفسها ، بالعصبيات الطائفية ، والنعرات المذهبية التى خلقها أو غذاها فى نفوس الشعب عن طريق الإرساليات الدينية التبشيرية والمعاهد الثقافية الأجنبية .

الفصل الثالث

مشكلات الوطن العربى السياسية

١ — فلسطين

لم تكن فلسطين فى عهد العرب دولة منفصلة ، بل كانت جزءاً من وحدة أكبر . وقد كانت كذلك فى عهد الرومان والدول التى سبقتهم ، وعند ما انتقلت فلسطين وسائر سورية إلى الحكم العثمانى فى القرن السادس عشر ، ظلت حياة الشعب سائرة على وتيرتها الأولى دون أن تتغير وفقاً للتقاليد الموروثة . فبقيت اللغة العربية والثقافة متماسكتين ، واستمرت وحدة البلاد مع البلدان العربية المحيطة بها ، وعند نشوب الحرب العالمية الأولى لم تكن فلسطين مستعمرة ، بل كانت ولاية تابعة للدولة العثمانية . وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ أصدرت الحكومة البريطانية « وعد بلفور » الذى نص على إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين. وكان وعد بلفور بداية مأساة فلسطين . وقيل فى تعليل حرص بريطانيا على تحقيق أطماع الصهيونية فى فلسطين أنها كانت فى حاجة إلى تعضيد الصهيونية العالمية لقضية الحلفاء إبان الحرب العالمية الأولى ، واعتراف الساسة البريطانيين بالجميل للدكتور

« وايزمن » لخدماته العلمية فى تحضير الذخيرة ، والنزعة الدينية عند بعض هؤلاء الساسة ، وما لاقته فكرة عودة اليهود من تحمس عاطفى . ولكن التعليل الصحيح ، هو اتجاه بريطانيا إلى خلق مركز استعمارى لها فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، ذلك أن وجود عدد كبير من السكان اليهود فى فلسطين تحت إشراف بريطانيا وحمايتها يجعلهم يعترفون بالولاء لها وذلك من شأنه تأمين مصالح الاستعمار البريطانى فى المنطقة .

وقد استخلص الانجليز فلسطين من أيدى الدولة العثمانية بمساعدة العرب ، ولم يكونوا أحراراً فى التصرف بالبلاد ، فإلى جانب العهود التى قطعها الإنجليز على أنفسهم بتحقيق استقلال العرب ، برز إلى الوجود نظام الانتداب ، وكانت مصلحة السكان وتحسين أحوالهم الهدف الأول لهذا النظام . وقد وكل إلى بريطانيا الانتداب على فلسطين ، والعهود التى قطعتها بريطانيا لليهود كانت مخالفة لروح الانتداب وغايته ؛ كما أنها انتهكت حرمة ميثاق عصبة الأمم الذى استمد منه الانتداب صفته الشرعية . وفتحت بريطانيا أبواب فلسطين على مصراعيها أمام الهجرة اليهودية ، وسمحت بإنشاء الوكالة اليهودية لتسدى الرأى للحكومة وتتعاون معها فى كل الأمور التى تتعلق (بإقامة الوطن القومى اليهودى ، وبمصالح السكان اليهود فى فلسطين) وقد أدى اعتراف الحكومة البريطانية بالوكالة اليهودية إلى تغلغل نفوذ الصهاينة ، ورقابتهم فى دوائر الحكومة المختلفة ، مما فتح المجال

أمام التدخل الصهيونى فى جميع شئون البلاد ، واعتبرت اللغة العبرية ، التى لم تكن الجالية اليهودية الصغيرة تتكلمها يومئذ لغة رسمية ، ووضعت على قدم المساواة إلى جانب اللغة العربية لغة الأكثرية الساحقة من السكان .

وقد أعلن العرب معارضتهم لمطامع الصهيونية منذ البداية . وفى يوليو سنة ١٩١٩ أصدر المؤتمر السورى الذى عقد فى دمشق وشهده مندوبون عن فلسطين وغيرها من أجزاء سورية القرار التالى بالإجماع (نرفض مطامع الصهيونيين فى إقامة دولة يهودية فى ذلك الجزء من جنوب سورية الذى يعرف بفلسطين ، ونعارض الهجرة اليهودية إلى أى جزء من هذه البلاد . ولا نعترف بحقهم فى ذلك ونعتبر مطامعهم هذه تهديداً خطيراً لحياتنا القومية والسياسية والاقتصادية ؛ أما مواطنونا اليهود ، فسيظلون متمتعين بما نتمتع به من حقوق ، ناهضين بما ننهض به من مسئوليات) .

وكانت لجنة كنج — كرين التى أرسلها الرئيس الأمريكى ولسن فى سورية يومئذ ، وبناء على ما وصلت إليه من تحرياتها — التى تؤيد قرار المؤتمر تأييداً تاماً — أوصت بإجراء (تعديل أساسى فى البرنامج الصهيونى المتطرف الذى يطالب بهجرة اليهود إلى فلسطين دون قيد تمهيداً لجعل فلسطين فى النهاية دولة يهودية صريحة) .

وقد كان الانتداب البريطانى بالنسبة للعرب ، فترة توتر وعدم طمأنينة ، تخللها عدد من الثورات العنيفة ، وكان يعقب كل ثورة ، إرسال لجنة ملكية للتحقيق ، وكانت تحريات هذه اللجان التى بدأت سنة ١٩٢٠ وانتهت بلجنة بيل سنة ١٩٣٦ ، تدل على أن أسباب كل ثورة واحدة لا تتغير وهى « رغبة العرب فى الاستقلال » وامتعاضهم وخوفهم من تأسيس الوطن القومى اليهودى » . وجاء فى تقرير لجنة « بيل » (إن هذين السببين كانا دوماً مرتبطين . فوعد بلفور والانتداب الذى سيتم تحقيق هذا الوعد فى ظله ، ينكران مبدأ الاستقلال أصلا ، ثم إن تكوُن الوطن القومى خلق عقبة — بل هو العقبة الكأداء الوحيدة — فى سبيل نيل الاستقلال) .

وفى سنة ١٩٣٦ قامت الثورة فى فلسطين ، وعمدت بريطانيا إلى تخدير الشعور القومى العربى فأرسلت لجنة ملكية للتحقيق وبعد مضى بضعة أشهر من البحث ، قررت اللجنة أن الانتداب لم يعد صالحاً ، ولذا اقترحت تقسيم فلسطين إلى دولتين : إحداهما عربية والأخرى يهودية ، والإبقاء على مقاطعة تظل تحت إدارة الانتداب البريطانى . وكان جواب العرب على هذه المقترحات استئناف الثورة بعزم جديد . وشملت الثورة جميع أنحاء البلاد ، وأطاحت بسلطة الحكومة فى جزء كبير منها ، واستمرت من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٣٩ . وقد كانت هذه

الثورة ثورة الفلاحين على تلك القوى التى جندت لنزع أراضيهم من أيديهم ، ولتجريدهم من تربة أوطانهم ومن تراثهم وتقاليدهم التى خالطت تلك التربة .

وفى سنة ١٩٣٩ عقد مؤتمر فى لندن شهده العرب واليهود ، وأصدر المؤتمر كتاباً أبيض يوضح سياسة الحكومة ، وهى إنشاء دولة فلسطينية مشتركة خلال عشرة أعوام . ذلك بشرط ثبوت التمازج والتواثق بين العرب واليهود . وأباحت بريطانيا الهجرة اليهودية إلى فلسطين خمس سنوات أخرى ، وعدوا بتنظيم انتقال الأراضى ، مع أن منع الهجرة وانتقال الأراضى كانا مطلبين أساسيين وحيويين للعرب .

وفى سنة ١٩٤٠ ، أرسلت الحكومة البريطانية الكولونيل « نيوكومب » إلى العراق حيث كان يقيم عدد من زعماء فلسطين وفوضته الوصول إلى تفاهم مع العرب على أساس الكتاب الأبيض الصادر سنة ١٩٣٩ . وقد تم الاتفاق ووقع . وأجريت المفاوضات ووقع الاتفاق بعلم مندوبين عن الحكومتين العراقية والسعودية وبموافقتهم ، ولما كانت تلك الأسس التى تمت عليها التسوية حائزة على موافقة عرب فلسطين ، أعلنت الحكومة العراقية استعدادها لدخول الحرب ووضع الجيش العراقى تحت إمرة القائد العام لمنطقة الشرق الأوسط . وآزر العرب بريطانيا فى

أدق الظروف التى مرت بها فى الحرب ولكن بريطانيا لم تتقيد باتفاقية بغداد ، وظلت قضية فلسطين مصدر ثورة وقلق فى نفوس العرب ، أثناء فترة الحرب ، وأدت إلى نفور العرب من بريطانيا وحلفائها .

وفى أثناء الحرب ، نقل الصهاينة مركز نشاطهم السياسى من بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية لأنها الفريق الأقوى سياسياً واقتصادياً . وأعلن الصهيونيون الأمريكيون عزمهم على إقامة دولة يهودية لأول مرة فى تصريح أصدروه سنة ١٩٤٢ يعرف بقرار « بلتيمور » .

وفى سنة ١٩٤٤ قدم اقتراح إلى الكونجرس الأمريكى بطلب إباحة الهجرة اليهودية إلى فلسطين دون قيد أو شرط ، وإقامة دولة يهودية فيها . وسحب هذا الاقتراح بناء على توصيات وزارة الحربية ووزارة الخارجية ، اللتين خشيتا أن يحدث أثراً سيئاً فى الشرق الأوسط فى الوقت الذى كانت فيه الحرب قائمة ؛ وعند ما أوقفت العمليات الحربية ، صودق على الاقتراح ، بعد تعديل طفيف فى مجلس الشيوخ والنواب . وفى الوقت نفسه كان الصهاينة يقومون بحملة قوية منظمة للتأثير على الرأى العام الأمريكى .

ونتيجة للضغط الصهيونى أخذت الحكومة الأمريكية تضغط

على الحكومة البريطانية للإسراع فى تنفيذ البرنامج الصهيونى . وتألفت لجنة تحقيق أنجلو أمريكية ، وسافرت إلى فلسطين فى سنة ١٩٤٦ ورأت اللجنة أن لا تكون فلسطين دولة عربية أو يهودية . ونصحت بدخول مائة ألف مهاجر يهودى فوراً إلى فلسطين ، وتركت الباب مفتوحاً أمام هجرة واسعة فى المستقبل ، ومعنى هذا أنها جعلت قيام الدولة اليهودية أمراً مؤكداً ، وذلك بتيسير تفوق اليهود العددى ، بوساطة سيل الهجرة المتدفق المستمر .

وفى خريف سنة ١٩٤٦ دعت الحكومة البريطانية الحكومات العربية إلى مؤتمر خاص بفلسطين يعقد فى لندن . وتقدم العرب باقتراحات بشأن تأسيس دولة موحدة مستقلة فى فلسطين ، تسير على النظام الديمقراطى وتراعى فيها حقوق الأقليات . ومع أن المؤتمر امتد حتى شتاء ١٩٤٦ — ١٩٤٧ ، فإنه لم يصل إلى اتفاق ما ، ولهذا قررت الحكومة البريطانية عرض قضية فلسطين على الأمم المتحدة .

وفى أبريل سنة ١٩٤٧ عقدت دورة خاصة للأمم المتحدة ، وقررت إرسال لجنة تحقيق ، وانقسمت الهيئة إلى أكثرية وأقلية واقترحت الأولى تقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ويهودية ، وظهرت أصابع المؤامرة الاستعمارية ضد العرب فى هذا التقسيم ، حيث خص اليهود بمميزات كبيرة من حيث المساحة وإمكانيات

النمو فى المستقبل ، واقترحت الأكثرية أيضاً جعل منطقة القدس دولية . وقيام اتحاد اقتصادى بين الدولتين العربية واليهودية .

أما الأقلية فاقترحت أن يقو م فى فلسطين حكومتان مستقلتان ذاتيًّا واحدة عربية وأخرى يهودية يجمعهما اتحاد برئاسة واحدة ودستور واحد . ووقفت الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب الصهيونية تشد أزرها ، حتى ضمنت لها موافقة أغلبية أعضاء الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ على قرار التقسيم . واشتمل القسم اليهودى على منطقة النقب التى تنتهى إلى خليج العقبة فكان ذلك مؤذناً بانقطاع الصلة الأرضية بين شمال إفريقية العربى وبين آسيا العربية مما جاء محققاً للأخطار التى انطوت عليها الأهداف الصهيونية والبريطانية معاً .

وقد رفض العرب إقرار هذا التقسيم . وشعر الصهاينة بالأرض تميد تحت أقدامهم نتيجة لمقاومة العرب الهائلة ، فأسرعت الولايات المتحدة وغيرها تعلن سحبها لتأييد قرار التقسيم وجعل مجلس الأمن يعيد القضية إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة لإعادة النظر فيها . بيد أن الموقف تطور لصالح الصهيونية ، منذ أواخر شهر مارس سنة ١٩٤٨ إذ راحت بريطانيا تمد الصهاينة بالعتاد الحربى . وفى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ أعلن الصهاينة مولد « إسرائيل » وفى نفس الليلة دخلت الجيوش العربية أرض

فلسطين لتخلصها من الصهاينة . . ولكن . . الخيانة والمؤامرات الاستعمارية عملت على أن تتم المأساة فصولها . . ووجدت إسرائيل كرأس جسر للاستعمار فى الوطن العربى .

٢ — الجزائر

كان احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ أول ثغرة فتحها الاستعمار فى الوطن العربى ، فلم تستطع الدول العربية أن تحرك ساكناً إزاء هذا الحادث الجلل ، فالدولة العثمانية صاحبة السيادة الإسمية على الجزائر إذ ذاك ، كانت « الرجل المريض » ، ثم إن تحطيم الأساطيل الثلاثة المصرى والعثمانى والجزائرى فى معركة « نافارين » كان ضربة قاصمة للدولة العثمانية .

أما مصر فكانت تجرب يومئذ مغامرات الحاكم الألبانى محمد على ، وكانت سياستها تقوم على مجاملة فرنسا ، نكاية فى بريطانيا .

أما تونس والمغرب الأقصى ، فكان ضعف الدولتين الحسينية والشريفية يكاد يعوقهما عن حفظ الأمن الداخلى فيهما فكيف تمد يد العون لقطر آخر كالجزائر . أما الدول الأوربية ، فقد اكتفى بعضها بالاحتجاج وإثارة المصاعب فى وجه فرنسا ،

بطريقة غير جدية ، كبريطانيا ، بينما أبدى أكثرها ابتهاجه بهذا النصر الأوربى فى بلاد الجزائر العربية[1].

وكانت نتيجة هذه الظروف والملابسات ما يلى :

١ — أخذت فرنسا تكيد لتونس ، وتثير فيها القلاقل إلى أن تمكنت من احتلالها سنة ١٨٨١ .

٢ — الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وبريطانيا ، وسمح باحتلال تونس ، هو الذى مكن بريطانيا من أن تستبد بشئون مصر وتتآمر على استقلالها ، إلى أن تم لها احتلالها فى سنة ١٨٨١ .

٣ — توغلت فرنسا فى صحراء أفريقية ، وحطمت الممالك الإسلامية المستقلة فيها ، وحاولت احتلال جنوب وادى النيل .

٤ — ضاع القسم الأوربى للدولة العثمانية فى حرب البلقان . ثم انهارت هذه الدولة نهائيًّا على أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى . وسقوط العراق تحت الانتداب البريطانى وسورية ولبنان تحت انتداب فرنسا ووقوع نكبة فلسطين .

ولم يستسلم الشعب الجزائرى لقوات الاستعمار الفرنسى ،

---

(١) المشكلات العالمية المعاصرة : المؤلف .

فقد هب الشعب بقيادة الأمير عبد القادر محى الدين الهاشمى فى سنة ١٨٣٢ بالثورة العارمة ضد الجيش الفرنسى ، واستمرت المقاومة تكلف فرنسا الكثير من الرجال والمال .

. . . وأخيراً . . اضطر الأمير عبد القادر إلى إلقاء السلاح ، ومع ذلك ظلت المقاومة الشعبية على أشدها . . . واستمرت قوات الشعب صامدة ، فى الوقت الذى ظلت فيه حملات الإبادة مستمرة بين عامى ١٨٤٩ و ١٨٥٣ من قبل فرنسا حتى أبادت فى سنة ١٨٥٢ ثلثماية قرية ! ! .

وقامت إذ ذاك عدة ثورات شعبية : ثورة فى سنة ١٨٥٧ ، وانتهت بهزيمة الثوار ودفع غرامة قدرها مليونا فرنك . وفى سنة ١٨٥٩ نشبت ثورة سناش وفى سنة ١٨٦٤ هبت ثورة بنى سيف ثم اندلعت بعد ذلك ثورة مارس الكبرى سنة ١٨٧١ وخسر فيها الفرنسيون ٢٠ ألف جندى وقضى الاستعمار الفرنسى على الشعب الجزائرى بالأحكام الآتية :

١ — حكم باعدام ٦ آلاف شخص .

٢ — غرامة ٣٦ مليون فرنك .

٣ — مصادرة نصف مليون هكتار (الهكتار نحو فدانين ونصف فدان) .

وساد إذ ذاك الهدوء الجزائر . . ولكن إلى حين . . !

وقد عمد الاستعمار الفرنسى إلى سرقة الأرض الجزائرية ، وذلك بتكوين طبقة إقطاعية جديدة وترتبط مصالح هذه الطبقة ارتباطاً وثيقاً ببقاء الاستعمار لأنه هو خالقها وكانت هذه الطبقة الإقطاعية تعرف باسم « الكولون » وبدأ اغتصاب الفرنسيين للأرض بقرار ٨ سبتمبر سنة ١٨٣٠ ، فصادر لحساب الدولة الجديدة ملكية الأتراك وملكية الأوقاف . ويبدو مدى خطورة هذا القرار إذا عرفنا أن جزءاً كبيراً من الملكية العقارية كان موقوفاً ، فمصادرته حققت للاستعمار الفرنسى هدفين : أولهما أنه استولى على جانب كبير من الأرض . والثانى أنه حرم الخدمات الدينية والخيرية من مصادرها وأخضعها لسيطرته المباشرة.

وكانت الخطوة الثانية هي إصدار قانون فى أول أكتوبر سنة ١٨٤٤ ويقضى بمصادرة أراضى العرش لصالح الدولة . وتوالت القوانين التى تزيد ملكية الدولة توسعاً ، فصدر قرار يقضى بأن تؤول للدولة كل أرض لا يستطيع صاحبها أن يثبت أنه مالك لها بعقد .

وفى أوائل القرن العشرين ازداد النظام الرأسمالى ضراوة فكثرت رءوس الأموال المستثمرة فى الجزائر ، وبدأت الملكيات الكبيرة إنتاجها الزراعى الآلى . كما بدأت عملية تركيز الملكيات الزراعية

والقضاء تدريجياً على صغار الملاك ومتوسطيهم حتى من الكولون . وتم تحويل الإنتاج الزراعى فى أراضى الكولون إلى إنتاج تجارى فامتدت زراعات قصب السكر ، والقطن ، والزيتون والألفا والتمباك .

وقد حاولت فرنسا فرنسة الجزائر العربية ، وذلك بالقضاء على اللغة العربية وإحلال الفرنسية محلها[1] ، والضغط على الجزائريين بالتهديد والترغيب فى التجنس بالجنسية الفرنسية . ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل .

وتستميت فرنسا وحلفاؤها فى التمسك بالجزائر . . والسر يكمن فى البترول الذى يفيض من أرض الجزائر العربية . ويقول ساسة فرنسا : إنها لو تمكنت من الحصول على بترول الجزائر لاستغنت عن البترول من الخارج ووفرت نقدها النادر لصرفه على مشاريعها الاقتصادية والعمرانية . وبلغ الإنتاج ١٣ مليون طن فى سنة ١٩٦٠ يصل إلى ٢٥ مليون طن فى سنة ١٩٧٠ أى ما يوازى استهلاك فرنسا السنوى . وتستهدف فرنسا من وراء استغلال بترول الجزائر ضمان استقلالها فى ميدان الطاقة الصناعية وبالتالى استقلالها فى العملة الصعبة ، وحاجتها السنوية إلى الطاقة البترولية تبلغ ٢٥ مليون طن ، وإذن ففى الإمكان أن تسد

---

(١) الجزائر مشكلة دولية : المؤلف .

حاجتها بنقل بترول الصحراء فى سنة ١٩٧٠ ، وتتضح لنا الأهمية التى تعلقها فرنسا على بترول الجزائر إذا عرفنا أنها تشترى اليوم البترول من الخارج ، وأن ذلك يكلفها ٥٠٠ مليون دولار ومن أجل ذلك تبذل فرنسا جميع الوسائل لكى تضمن امتياز استقلال بترول الجزائر ، فهى أولا تقرر أن الصحراء أرض فرنسية ، وتضاعف وسائل الحرب لتضمن طرق نقل البترول ، وتحل الشركات التابعة للولاية العامة بالجزائر وتلحقها بالحكومة الفرنسية أو بشركات فرنسية خاصة . وهى ثانياً تسرع فى الأعمال الفنية (منح امتيازات جديدة للبحث عن البترول — مد خطوط الأنابيب ، تجهيز الموانى) .

وليست فرنسا هى الوحيدة المهتمة ببترول الجزائر ، فإن دول أوربا الغربية تهتم هى أيضاً ببترول الجزائر لأنها تستمد ثلثى طاقتها الصناعية من بترول الشرق الأوسط . وقد ذاقت الأمرين على أثر العدوان الثلاثى الغادر على مصر فى سنة ١٩٥٦ وامتناع وصول بترول الشرق الأوسط إليها . ومن هنا يقوم سباق بين شركات البترول البريطانية والأمريكية والفرنسية على الاستحواذ على بترول الجزائر . والاندفاع اليوم وراء البترول الجزائرى يعد من أعجب ما شهده التاريخ البترولى فى العالم كله فلم يحدث فى أى مكان آخر أن قامت فرق التنقيب والبحث فى مثل تلك الأماكن النائية أو فى منطقة تجتاحها الثورة العارمة.

وبديهى أن فرنسا تبغى من وراء استدراج الحكومتين

الأمريكية والبريطانية إلى المساهمة معها فى الحرب الوحشية التى تخوضها ضد الشعب الجزائرى . ولهذا فإن فرنسا تعرض على الشركات الأمريكية والبريطانية شروطاً مغرية – لاشتراكها فى استغلال بترول الجزائر .

وفى أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ قامت الثورة الجزائرية الكبرى ، وتألفت جبهة التحرير الوطنى الجزائرى ، وجيش التحرير الوطنى على أساس عضوية كل جزائرى يرتبط بمبادئ الجبهة بصرف النظر عن مبادئه السابقة .

ومبادىء الجبهة تتلخص فيما يلى :

١ – استقلال الدولة الجزائرية لتكون ذات سيادة ونظام ديمقراطى اشتراكى فى إطار المبادئ الإسلامية .

٢ – احترام الحريات الأساسية دون تمييز بسبب الدين أو الجنس .

٣ – تطهير الحركة الوطنية الجزائرية من الفساد واتجاهات المساومات وبرامج الإصلاحات وتجميع الشعب الجزائرى فى معركة ضد الاستعمار .

٤ – تحقيق وحدة شمال أفريقية فى إطارها العربى الطبيعى

٥ – القيام فوراً بالإصلاح الزراعى .

وقد حاولت فرنسا إخماد الثورة ، بشن حرب إبادة على الشعب العربى فى الجزائر . بيد أنها فشلت .

وفى نوفمبر سنة ١٩٥٦ تقرر عقد اجتماع يحضره زعماء

الجزائر وفرنسا وممثلو الحكومتين التونسية والمغربية ولكن زعماء الجزائر الخمسة « بن بلا وزملاءه » دبرت فرنسا اختطافهم بحادث الطائرة المعروف .

وقد كان من نتيجة فشل فرنسا فى إخماد الثورة الجزائرية ، ووقوعها فى الضائقة المالية التى لحقت بها ، وانهيار الاقتصاد الفرنسى بسبب نفقات الحرب ، أن قامت فى الجزائر لجان الأمن العام باشتراك الكولون مع بعض قيادات الجيش فى ١٣ مايو سنة ١٩٥٨ — بالثورة على الحكومة الفرنسية ، وأسفرت هذه الحركة عن تولى الجنرال ديجول ، وسقطت الجمهورية الرابعة وصدر دستور الجمهورية الخامسة .

ولم يقبل الشعب الجزائرى أية مساومة فى حقه فى الحرية والحياة الكريمة ، وأصر على أن كل مفاوضات مع فرنسا يجب أن يسبقها اعتراف فرنسى باستقلال الجزائر وكيانها المستقل عن فرنسا ، وأن تتم المفاوضات فى بلد محايد .

وفى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٥٨ تألفت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية .

ومستقبل الجزائر الآن فى يد الجيش الوطنى الجزائرى ، فبقوة نضاله . . يرسم طريق النصر . . وتقوم الجمهورية الجزائرية المستقلة كجزأ لا يتجزأ من الوطن العربى .

٣ - جنوب الجزيرة العربية

احتلت بريطانيا عدن سنة ١٨٣٠ ثم أخذت تغرى سلاطين المناطق المجاورة لعدن بالمال والهدايا ، ثم تسلبهم توقيعاتهم أو بصماتهم على « سندات التكريم والترحيب » وهى فى الحقيقة تعهدات ومبيعات لملكية هؤلاء الشيوخ والسلاطين لكل ما يملكون لحكومة الملكة فكتوريا . وفى سنة ١٨٣٢ تقدمت القوات التركية فى جنوب اليمن حتى حدود لحج شمال عدن ، بسبب استغاثة بعض السلاطين بالسلطات التركية . وبدأت بريطانيا ترسل قوات من الهند ، لتهديد السلاطين الثائرين والأتراك المجاورين للمحميات . واستمر هذا النضال السياسى حتى سنة ١٨٧٨ عند ما تم للسلطات البريطانية شراء الأراضى المشرفة على خليج عدن ، والمعروفة باسم « أراضى الشيخ عثمان » وذلك لتأمين منطقة عدن ضد أى هجوم قد يقوم به الأتراك أو الشيوخ الأحرار . وفى سنة ١٨٨٢ تم توقيع عقد بيع هذه المناطق ومساحتها ٣٥ ميلاً مربعاً إلى بريطانيا ، وفى نفس السنة احتلت بريطانيا مصر . وبدأت تضع خطتها للتوسع الأفريقى فأعدت مشروع حملة السودان ، ودفعت بأبناء مصر وقوداً لهذه الحرب . وكانت الخطة تستهدف إقامة إمبراطورية بريطانية

جديدة على حساب وادى النيل وجنوب الجزيرة العربية ، بجعل البحر الأحمر بحيرة بريطانية تتحكم فيه بريطانيا بالقواعد التى تقيمها على مداخله ، سواء فى عدن أو فى السويس أو فى السودان . وهكذا بدأ الأخطبوط البريطانى يبسط نفوذه على هذه المنطقة العربية ، بينما ترك المغرب العربى لفرنسا .

وعقب انتهاء الحرب العالمية الأولى ، طالبت بريطانيا من اليمن تسليم الأتراك فى أراضيها ، ولكن الإمام رفض هذا الطلب طبقاً لتقاليد العروبة ، على الرغم مما فعله الأتراك ضد مصالح اليمن والعرب جميعاً . وانتهى الخلاف بدخول القوات البريطانية كل المناطق المحيطة بعدن ، وهى المناطق التى عرفت باسم « المحميات » . والتى كانت بريطانيا قد تسللت إلى بعضها بطريق الغش والخداع . ونتيجة حتمية لاستسلام الأتراك لبريطانيا ، ودخول القوات البريطانية المناطق اليمنية أعلن الإمام يحيى مطالبته بحقوقه فى هذه المناطق ، وعدم تقيده بنتائج تصرفات الأتراك بتنازلهم عن هذه المناطق لبريطانيا ، إذ ليس من حقهم التنازل عن شىء لا يملكونه . ولكن بريطانيا لم تعبأ بهذا الإعلان ، بل نزلت فى ميناء « الحديدة » اليمنية .

وفى سنة ١٩١٩ دارت مباحثات مباشرة بين اليمن وبريطانيا حول هذا الموضوع . بيد أن هذه المباحثات لم تسفر عن نتيجة إيجابية . كما لم تسفر المفاوضات التى دارت بعد ذلك عن أية نتائج محددة إلى أن عقدت معاهدة الصداقة والتعاون بين اليمن

وبريطانيا فى ١١ فبراير سنة ١٩٣٤ وقد نص فيها على تأجيل البت فى مسألة الحدود إلى موعد يحدد فيما بعد ! !

ولما قامت الحرب العالمية الثانية ، زاد اهتمام بريطانيا لاسترضاء اليمن ، خوفاً من استمالة إيطاليا ، ولا سيما بعد إنشاء قاعدة بحرية لها فى مصوع وعصب . ولما نجح البريطانيون فى شرق أفريقية ضد إيطاليا فى سنتى ١٩٤٠ و ١٩٤١ زال قلق بريطانيا حول مستقبل البحر الأحمر ، ووعدوا الإمام يحيى بتصفية كل المشاكل المعلقة حينما تضع الحرب أوزارها ، وفعلاً تظاهرت بريطانيا بمؤازرة اليمن لقبولها عضواً فى الأمم المتحدة ، بيد أنها اكتفت بذلك ، فلم تحاول حل مشكلة الحدود والمحميات حتى سنة ١٩٥٠ عند ما عقد مؤتمر لندن لتصفية المشاكل المعلقة بين اليمن وبريطانيا ، فقد أغفل ذكر منطقتى نجد مرقد وشجرة . وأعقب مؤتمر لندن ، توقيع معاهدة جديدة بين اليمن وبريطانيا فى سنة ١٩٥١ وتنص على تأليف لجنة لبحث المشكلات ، على أن تبقى الحالة كما هى عليه طبقاً لمعاهدة سنة ١٩٣٤ !

وفى ٨ يناير سنة ١٩٥٤ أرادت بريطانيا إقامة اتحاد فيدرالى بين المحميات ، ولكن الشعب رفض إقامة هذا الاتحاد الزائف . وفى سنة ١٩٥٨ فرضت بريطانيا اتحادها الزائف على بعض إمارات الجنوب العربى .

ولكن . . ما هى أهداف بريطانيا فى الجنوب العربى ؟

تهتم بريطانيا اهتماماً كبراً بالجنوب العربى [١]، لأسباب عدة ، أهمها أن أعمال التنقيب والبحث الجيولوجى فى هذه المنطقة قد دلت على وجود آبار من البترول ، تجعله فى الرعيل الأول من البلاد التى تنتج البترول فى العالم . ويكاد البترول يطفو على سطح الأرض فى منطقة شبوه ، وهناك أيضاً خمسة حقول غنية بالبترول فى مناطق ثمود ، وحبروت ، وزمخ ، وبالساحل فى منطقة حجر .

وتقوم بالبحث فى هذه المناطق شركة البترول والتنقيب المحدودة وهى شركة أمريكية — بريطانية . وقد أدركت بريطانيا أهمية هذا العامل الجديد ، فأقامت معملاً لتكرير البترول فى عدن . ويقوم بتكرير فائض البترول الإيرانى وبترول المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين . وعند ما تتم أعمال التنقيب فى الجنوب العربى سيقتصر عمله على تكرير بتروله فقط .

أما السبب الثانى الذى يدفع بريطانيا إلى الاهتمام بالمنطقة فهو تطور أهميتها الاستراتيجية بالنسبة إلى الاستراتيجية البريطانية

---

(١) « جنوب الجزيرة العربية » : محمود الشرقاوى .

أولا والاستراتيجية الغربية ثانياً . فعدن وإمارات الجنوب العربى ، هى القاعدة الأمامية للدفاع عن الإمبراطورية البريطانية فى أفريقية .

أما بالنسبة للاستراتيجية الغربية ، فإن عدن وإمارات الجنوب العربى تبدو أهميتها فى أنه إذا حدث هجوم من الشمال فسيكون الخليج العربى أحد أهدافه ومنه يمكن النزول إلى شواطىء شبه الجزيرة العربية وعزلها والالتفاف حولها وجعلها قاعدة للهجوم على أفريقية .

والسبب الثالث الذى يدفع بريطانيا إلى الاهتمام بالمنطقة هو الرغبة فى احتكار السيطرة على الأسواق ، لتعوض ما قد تتعرض له التجارة البريطانية من خسارة نتيجة حتمية لمنافسة اليابان والهند .

أما السبب الرابع والأخير فهو وجود المعادن كالعقيق فى منطقة صنعاء والميكا فى مأرب والملح الحجرى فى الصليف والفحم فى آب والحديد فى الصعدا واستغلال هذه المنطقة فى زراعة الحبوب كالقمح والذرة والقطن .

الحركات التحررية :

لم يكن جنوب الجزيرة العربية مسرحاً للحركات السياسية

قبل سنة ١٩٥٠ ، إذ كان الاستعمار البريطانى يلقى ستاراً كثيفاً على الشعب هناك ، ليحجب عنه التطورات التى تجرى فى العالم ، ومن أجل هذا الهدف عمد الاستعمار إلى ترك أبناء الجنوب فى جهل مطبق . ولكن هذه السياسة لم يقدر لها النجاح ، إذ نزح فريق من أبناء الجنوب إلى أندونيسيا وإلى الاقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة لكى يتعلموا فى مدارسها وجامعاتها ثم عادوا إلى بلادهم يحملون الشعلة المقدسة . . شعلة العلم والحرية .

ومن هذا التاريخ (١٩٥٠) قامت حركات سياسية ، وإن كانت لم تعمر طويلاً ، كحركة نادى الشعب فى ساطنة لحج ، وكانت أهدافه النهوض بالزراعة . والحزب الوطنى فى السلطنة القعيطية ، ولجنة العمل لوحدة حضرموت فى السلطنة الكثيرية . وقبل هذا التاريخ (١٩٥٠) بدأ نوع من النشاط الاجتماعى فى عدن ممثلاً فى نادى الأدب العربى الذى يرأسه السيد عبد الله علوى الحفرى . ونادى الإصلاح . ولكن هذا النشاط خمد فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

وفى سنة ١٩٤٩ — ألف الشيخ محمد عبد الله المحامى — الجمعية الإسلامية فى عدن ، وانضم اليها عدد كبير من المواطنين هناك ، وكان برنامجها إسلامياً اجتماعياً ثقافياً ، ولاتزال الجمعية قائمة حتى اليوم ، وإن كانت قد فقدت أهميتها عقب وفاة الشيخ عبد الله فى سنة ١٩٥٤ .

وفى سنة ١٩٥٠ تأسست « الجمعية العدنية » وكان لا يزال القائمون عليها محمد على لقمان وأولاده وهم فى الأصل « بهرة » ولفيف من المتصلين بهم . وكانت نشأة هذه الجمعية معارضة لقيام الجمعية الإسلامية ، لعدم الانسجام بين القائمين بالجمعيتين ولأن القائمين بالجمعية الأخيرة لا يؤمنون بالمبدأ الإسلامى العام ، ويريدونها جمعية محلية ، ولأن الشيخ محمد عبد الله المحامى كان مكروهاً من حكومة عدن البريطانية لنزعته التحررية .

ونحن نلاحظ على هذه الحركات ، أن حركة نادى الشعب فى لحج حركة جزئية محلية ، وأن لجنة العمل لوحدة حضرموت قد قصرت اهتمامها على وحدة حضرموت ، وأن الجمعية الإسلامية ذات أهداف اجتماعية إسلامية كبيرة ، ولكنها بحكم تكوينها وتعدد مشاعر أعضائها وأنصارها فى عدن واتجاهها الإسلامى العام لا يمكن أن تحمل الفكرة الوطنية لتحرير الجنوب العربى من الاستعمار البريطانى .

وأخيراً فإن الجمعية العدنية قامت نتيجة لقيام الجمعية الإسلامية تؤازرها الشعوبية والاستعمار . وأن الجمعية تدعو إلى العدنية الضيقة أى إلى فكرة مواليد عدن ، بمعنى أن كل مولود فى عدن مهما كان جنسه فهو عدنى ، ، فيدخل فى ذلك الأوربى والهندوكى والفارسى واليهودى . وأن كل مقيم فى عدن من أبناء العروبة وحتى من أبناء اليمن وما يسميه البريطانيون

« المحميات » أجانب لا يحق لهم التمتع بالحقوق التى يتمتع بها مواليد عدن . والجمعية العدنية تؤمن بأبناء الكومنولث البريطانى ، فإذا أقاموا فى عدن فيكون لهم كافة الحقوق التى لأبناء عدن مهما كانت أجناسهم وبلادهم ، ولذلك فقد نصت هذه الجمعية فى دستورها على المطالبة بالحكم الذاتى ضمن رابطة الشعوب البريطانية « الكومنولث البريطانى » .

وفى سنة ١٩٥٠ تأسست رابطة أبناء الجنوب العربى برياسة محمد على الجفرى وأمينها العام شيخان عبد الله الحبشى ومن أهدافها :

أولا : وحدة شعب الجنوب العربى الكبير — تحت حكومة واحدة مستقلة تقوم بدورها الفعال فى بناء الكيان العربى الواحد .

ثانياً : الأمة العربية لها قومية واحدة فقط هى القومية العربية . وأن أى طريق يسلكه أى شعب عربى وأى كفاح يكافحه أى جزء من الأرض العربية يجب أن يتوخى مبادئ القومية العربية وأن يكون هذا الطريق أو ذاك الكفاح على أسس عربية .

ثالثاً : معاهدات الحماية والاستشارة التى عقدتها بريطانيا مع السلاطين باطلة .

وأن الرابطة بحركتها الوطنية فى جنوب الجزيرة العربية قد استكملت حلقات الكفاح العربى الذى كان يفتقده هذا الجزء من وطن العروبة فى كافة مجالات الكفاح من أجل تحرير الوطن العربى الكبير .

وفى ١٩ إبريل سنة ١٩٥٨ . . اندلعت الثورة فى الجنوب العربى ، ضد الاستعمار البريطانى ، ولجأت بريطانيا إلى سياسة التخدير . . تخدير الشعب . . فأعلنت أنها ستمنح عدن حكماً ذاتياً . . ورفض الشعب هذا المشروع .

ثم أعلنت مشروع الاتحاد الفدرالى بين إمارات الجنوب العربى . . ورفض الشعب أن يصبح عبداً للاستعمار .

فلم تجد بريطانيا . . وسيلة أخرى . . تخدر بها العملاق الكبير . . فعمدت إلى الحديد والنار . . وقابل الشعب هذه السياسة الرعناء بالثورة العارمة .

ومن أجل مسخ عروبة عدن والجنوب العربى وضعت بريطانيا عدة مشاريع هى :

١ — قانون الهجرة .

٢ — مشروع التعدين .

٣ — قانون الصحافة .

٤ — قانون منع التبرعات .

وسنتكلم فيما يلى عن هذه المشاريع الاستعمارية التى تستهدف القضاء على القومية العربية فى الجنوب العربى .

١ — قانون الهجرة :

يستهدف هذا القانون جلب جموع من أبناء الكومنولث البريطانى ومنحهم الجنسية العدنية ، وذلك لإذابة عروبة الشعب العربى فى عدن ، كما حدث فى فلسطين . إذ جاءت شراذم الصهيونية من كل حدب وصوب إلى فلسطين[1] تمهيداً لقيام إسرائيل . ولكى يكون العرب غرباء فى ديارهم . وتعمد السلطات الاستعمارية فى عدن إلى تشغيل أبناء الكومنولث البريطانى ، حتى يكونوا دعامة للاستعمار يرتكز عليهم للبقاء فى عدن .

٢ — مشروع التعدين :

وضعت السلطات البريطانية عند تقديمها هذا المشروع أسساً ومبادىء ما يسيره الوجهة المرسومة له مقدماً ، والتى لا

---

(١) المرجع السابق .

تختلف عن أهداف قانون الهجرة .

فالمواطن العدنى فى هذا المشروع هو :

١ — إذا كان قد قضى عشر سنوات فى خدمة الحكومة .

٢ — الرعوى البريطانى المولود فى عدن .

٣ — أو الرعوى البريطانى المولود خارج عدن والذى ولد أبوه فى عدن .

٤ — فى حالة ضباط الخدمة الآخرين وجميع الأشخاص الصالحين للتوظف .

(ا) الرعوى البريطانى المولود فى عدن والذى ولد أبوه أيضاً فى عدن .

(ب) الرعوى البريطانى المولود خارج عدن والمولود أبوه فى عدن والذى عاش بنفسه فى عدن خمس سنوات خلال السنوات العشر السابقة . ومن هذا المشروع يتضح أن تعريف المواطن أساسه الرعوية البريطانية لا عروبة الشخص . وقد ثار الشعب فى عدن على هذا المشروع ، ووضعت الهيئات الوطنية مشروعاً مضاداً لمشروع السلطات الاستعمارية يعرف المواطن العربى بأنه :

١ — كل شخص عربى ولد فى عدن .

٢ — جميع أبناء الجنوب القاطنون فى عدن .

٣ — كل شخص من أصل غير عربى ولد فى عدن وانقطعت صلته بوطنه الأصلى .

ولكن السلطات البريطانية لم تصغ السمع لهذه الاعتراضات وصممت على المضى فى تنفيذ مشروعها الاستعمارى .

٣ — قانون الصحافة :

يستهدف قانون المطبوعات خنق حرية إبداء الرأى، أو النقد النزيه . ومنح ضباط البوليس سلطة مصادرة أى جريدة ومصادرة المطبعة أيضاً . وبهذا القانون الجائر كمت الأفواه ، وأغلقت دور الصحف الوطنية .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا القانون التعسفى صدر فى الوقت الذى كانت فيه المفاوضات دائرة بين وزارة المستعمرات البريطانية وبعض السلاطين والمشايخ من أجل تنفيذ مشروع الاتحاد الفدرالى بين إمارات الجنوب العربى . وفى ظل هذا القانون الجائر عطلت صحف العروبة : النهضة ، الفصول ، الجنوب العربى التى نفت السلطات البريطانية رئيس تحريرها أحمد عمر بافقيه .

٤ — قانون منع جمع التبرعات :

ويستهدف هذا القانون قطع الصلات السياسية والقومية بين شعب الجنوب العربى وبين إخوانهم العرب فى الوطن العربى والسبب فى إصدار هذا القانون أنه فى سنة ١٩٥٦ جمعت تبرعات لبورسعيد ، وفى سنة ١٩٥٧ جمعت تبرعات للجزائر . وصدر هذا القانون سنة ١٩٥٨ ليعزل الجنوب عن كل ما هو عربى .

٤ ــ عُمان

تقع عمان فى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة العرب . وتمتد من حدود قطر فى الشمال ، حتى حدود حضرموت فى الجنوب ، ويحدها من الشمال المملكة العربية السعودية ومن الشرق خليج عمان ، ومن الجنوب البحر العربى ومن الغرب حضرموت والربع الخالى .

وعمان ذات أهمية جغرافية خاصة من حيث اعتبارها الركن الرئيسى الذى تلتقى على حدوده مصالح بريطانيا ومطامعها الاستعمارية فى كل من حضرموت وجنوب الجزيرة وفى مسقط وباقى الإمارات فى شرق الجزيرة . وعمان فضلاً عن ذلك ذات موقع بحرى ممتاز يمكنها من الاتصال المباشر السريع مع الهند وإيران وجنوب الجزيرة وشرقها وجنوب أفريقية وشرقها واندونيسيا وكل الشرق الأقصى [١].

وتتألف أرض عمان من مناطق ثلاث :

١ ــ الجبل الأخضر .

٢ ــ عمان الوسطى .

٣ ــ الشرقية .

---

(١) الشرق الأوسط فى الميزان الاستراتيجى : العميد ا. ح. كمال عبد الحميد .

وتعتبر عمان من أغنى البلاد العربية ثروة ، وأكثرها خصباً ، فبعض سهولها ووديانها لا تقل خصوبة عن سهول الإقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة . ولا يعرف العالم العربى — مع الأسف — عن أهمية اقتصاديات عمان شيئاً يذكر . وتوجد المعادن التالية فى عمان : الذهب بالجبل الأخضر ، الفحم الحجرى فى مسقط ومنطقة رأس الخيمة وجعلان وغيرها والنحاس والرصاص والكبريت والقصدير والحديد والبترول ويوجد فى الطريف التابعة لمشيخة أبى ظبى وأكسيد الحديد الأحمر فى الجزر التابعة لمشيخة الشارقة على الساحل المهادن حيث تحتكر استثماره شركة بريطانية هى شركة ألوان الوادى الذهبى . والسماد الطبيعى واللؤلؤ والأصداف . ويوجد فى جزائر كوريا موريا . والصناعة فى عمان صناعة يدوية بدائية بسيطة ، ومعنى هذا أن المصانع الحديثة لم تعرف فى إمامة عمان بعد .

وتعتبر إمارة عمان مستقلة استقلالاً كاملاً فلها علم خاص وأنظمة خاصة وتطبق الشريعة الإسلامية فى أحكامها . وينتخب حكامها بالمبايعة . فعمان دولة ديمقراطية جمهورية أساس الحكم فيها يقوم على الشورى .

ظلت إمارة عمان مستقلة منذ نحو ١٢٠٠ سنة ، وكانت هى أكبر قوة فى الجزيرة العربية وبسطت نفوذها على مسقط ،

وعلى كل الساحل العربى تقريباً حتى بعد خضوع مسقط لبريطانيا . واعترفت بريطانيا باستقلال عمان فى معاهدة السهب سنة ١٩٢٠ .

وقد اعترف المؤرخون الغربيون باستقلال عمان . ولم يجد البريطانيون أنفسهم بداً من التسليم بهذه الحقائق :

جاء فى كتاب المعهد الملكى البريطانى عن الشرق الأوسط فى نهاية الفصل الذى عقده لمسقط وعمان (. . . والحق أنه منذ نهاية القرن التاسع عشر لم يتجاوز نفوذ سلاطين مسقط المناطق الساحلية وظفار إلى قبائل داخلية عمان . وفى سنة ١٩١٣ ثارت هذه القبائل وانتخبت لها إماماً كان خلفه فى سنة ١٩٢٠ الإمام محمد بن عبد الله الخليلى ، وهو فى الواقع صاحب السلطان على القبائل التى تقيم فى منطقة تمتد نحو مائتى ميل إلى الشمال الغربى والجنوب الشرقى من مقر إمامته نزوى الواقعة إلى الجنوب من الجبل الأخضر . فهذه القبائل البدوية الداخلية تدين له بالولاء) .

وقد بدأت بريطانيا عدوانها الأخير منذ سنة ١٩٥٤ وهو نفس الوقت الذى وجهت فيه نشاطها فى كل هذه المنطقة شرقها وغربها أى فى البوريمى وفى عدن وحضرموت . وافتعلت بريطانيا الأسباب للضغط على إمام عمان ، وبررت به عدوانها على الشعب العربى فى عمان . وقد أوعزت بريطانيا لسلطان

مسقط باحتلال نزوى عاصمة عمان ، وكان رد بريطانيا على اتهامها بهذه السياسة العدوانية بأن مسقط هى التى اتخذت هذا الإجراء وليس بريطانيا فلا موجب لاتهامها فى هذا الشأن .

وتتمسك بريطانيا بهذه المنطقة العربية من أجل البترول الذى يفيض من أرضها . وتحت عنوان « حرب الذهب الأسود » كتبت صحيفة « كومبا » الفرنسية مقالاً فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٤ جاء فيه « إن الثروة البترولية فى صحارى هذه المنطقة هى سبب الأحداث الأخيرة .

وكانت بريطانيا قبل الحرب العالمية الثانية تملك امتياز البترول فى المنطقة كلها تقريباً ، ولكنها فقدت هذه المكانة بعد الحرب واضطرت إلى التنقيب عن أرض جديدة وكانت هذه الأرض . . هى عمان .

٥ — البوريمى

تقع واحة البوريمى شمالى شرق الجزيرة العربية على الخليج العربى . وتتألف البوريمى من تسع قرى أهمها البوريمى وحماسا وصعرا . وهى ملتقى كثير من طرق المواصلات فى شرق جزيرة العرب . وهى ذات موضع استراتيجى هام .

وما كاد الملك عبد العزيز آل سعود يمنح شركة الزيت الأمريكية امتياز استغلال البترول السعودى فى سنة ١٩٣٣ ، حتى بدأت فى هذه المنطقة الادعاءات البريطانية باسم مسقط والمشيخات . والحقيقة أن النزاع السعودى البريطانى وإن كان معروفاً بمشكلة البوريمى إلا أنه يشمل منطقة أكبر منها تبلغ مساحتها ٧٣ ألف ميل مربع .

وفى فبراير سنة ١٩٣٨ ذهب الأمير فيصل آل سعود إلى لندن وقدم للحكومة البريطانية مذكرة هامة ، لأنها تبنى حق الدولة على أسس وراثة هذه المناطق تاريخياً . ولكن رحلة الأمير فيصل لم تؤد إلى نتائج إيجابية . ولم يمض وقت طويل حتى قامت الحرب العالمية الثانية فطوى الطرفان هذه المشكلة مؤقتاً .

ووقعت معاهدة صداقة مع بريطانيا والسعودية فى إبريل سنة ١٩٤٢ بشأن إمارة الكويت ، ورفعت بمقتضاها السعودية الحصار الاقتصادى الذى ضربته على الإمارة منذ سنة ١٩١٩ ، وحددت القبائل التابعة لها .

وفى سنة ١٩٤٩ عادت مشكلة الحدود إلى الظهور عند ما بدأت الشركات البريطانية التنقيب عن البترول بادعاء أن البوريمى فى حدود ما يدعى بالمحميات التى تفرض بريطانيا عليها سيطرتها[١] .

---

(١) « مشكلات عربية » : المؤلف .

وفى ٥ يناير سنة ١٩٥٣ قدمت الحكومة البريطانية اقتراحاً لحل المشكلة ، ويتضمن إجراء تحكيم دولى بين الطرفين ، وبالرغم من وجود إجحاف فى مثل هذا الاقتراح قبلته الحكومة السعودية ، حفظاً للسلام والأمن بشبه الجزيرة العربية . وفى ٢٢ يناير بدأت اللجنة عملها وعند ما أصبح من المؤكد أن تصدر لجنة التحكيم قرارها فى صالح السعودية ، أوعزت الحكومة البريطانية إلى مندوبها فى اللجنة بالانسحاب تفادياً من صدور الحكم عليها ، مما أدى إلى شل أعمال اللجنة . وجاء فى مذكرة رسمية لوزارة الخارجية السعودية : (إن المملكة العربية السعودية تعتبر منطقة البوريمى جزءاً لا يتجزأ منها ، واقليماً من أقاليمها . يدين سكانه بالولاء لصاحب الجلالة الملك سعود المعظم . ولآبائه وأجداده من قبل ، وكما تثبت ذلك الوثائق التاريخية والصلات الجغرافية والعنصرية واللغوية والدينية) .

وإن النزاع على منطقة البوريمى ليس إلا لوناً من ألوان الصراع المحتدم فى الشرق الأوسط حول البترول ، ومناطق إنتاجه . فقد دلت أعمال البحث والتنقيب على وفرة البترول فى البوريمى ، هذا فضلاً عن أهميتها الاستراتيجية التى بدأت تسترعى أنظار بريطانيا أكثر من ذى قبل ، وذلك لأنها — أى بريطانيا — تعمد إلى تقوية نفوذها ودعمه فى إمارات الجنوب ومشيخات الخليج العربى . لأن البترول هو الدعامة الأولى

للاقتصاد البريطانى ومن المعروف أن قواعدها العسكرية فى هذه المناطق ، هى مراكز حراسة هذا البترول ، ولأن هذه المنطقة تعتبر خط الدفاع الأمامى لأفريقيا الشرقية ، ومن أجل هذا تعمل بريطانيا جاهدة لإقامة اتحاد فيدرالى بين إمارات الجنوب العربى من ناحية وتقوية سلطنة مسقط من ناحية أخرى لكى تتمكن من السيطرة على الجنوب والخليج العربى واستغلال بتروله وثرواته .

٦ ــ أفنى

تمتد منطقة أفنى على طول ساحل أفريقيا الغربية أمام جزر الكنارى ابتداء من نهر درعه إلى الرأس الأبيض . وتبلغ مساحتها ٢٨٥ كيلومتراً مربعاً . وهى من الأراضى الصحراوية ويبلغ عدد سكانها ثلاثين ألف نسمة .

وقد ادعت أسبانيا أن أفنى المنطقة المغربية من ممتلكاتها[١] وفى سنة ١٩٣٤ نزلت الجيوش الأسبانية فى هذه المنطقة واحتلتها على الرغم من احتجاج حكومة المغرب . أما السبب الذى حدا بأسبانيا إلى احتلال منطقة أفنى ، فهو أنها ــ أى أسبانيا ــ ادعت العثور على وثيقة باع ملك البرتغال بمقتضاها منطقة « سانت كروز » الواقعة جنوبى المغرب إلى ملك أسبانيا ، فى القرن السادس عشر ، وطالبت أسبانيا بضم هذه المنطقة المجهولة إليها . ولكن سانت كروز المزعومة ، لم تكن معروفة لدى أحد ، وفشلت بعثتان أرسلتا إلى جنوب المغرب للتعرف عليها . وأخيراً ادعت أسبانيا أن منطقة « أفنى » المغربية هى منطقة سانت كروز التى تبحث عنها .

وقد حاولت أسبانيا القضاء على القومية العربية فى المناطق

---

(١) المغرب الأقصى : المؤلف .

الواقعة تحت سيطرتها ، ولا سيما فى أفنى ، فعملت الحكومة الأسبانية إلى تحويلها إلى إقليم لاتينى بحت . ولذلك أصدرت فى سنة ١٩٤٧ . أمراً بضم هذه المنطقة إلى الممتلكات الأسبانية ، وتجريد أهلها من جنسيتهم المغربية .

ومن الغريب أن أسبانيا اعترفت باستقلال المغرب فى وثيقة رسمية بتاريخ ٧ أبريل سنة ١٩٥٦ ، وأكدت فيها اعترافها بوحدة الأراضى المغربية . ولوحظ أن أسبانيا أخذت تحاول أن تملى شروطاً تتنافى مع سيادة البلاد ، أثناء نقل السلطات إلى الحكومة المغربية ، فقد سلمت أسبانيا السلطات إلى المغرب فى المنطقة الشمالية ، وماطلت فى تسليم المنطقة الجنوبية إلى شهر أكتوبر سنة ١٩٥٧ ، حيث أعلنت لسفير المغرب الأقصى فى مدريد عن عزمها على تسليم منطقة طرفاية « أى منطقة الحماية الجنوبية » إلى السلطات المغربية . واستبشر شعب المغرب خيراً بإعلان جلاء أسبانيا عن أراضيهم حتى « ايت باعمران » سكان منطقة افنى الذين يدخل بعضهم فى نطاق الحماية ، بعد أن أرسلوا الوفود إلى الرباط ليلتمسوا من الحكومة المغربية مطالبة أسبانيا بالجلاء عن أراضيهم ، وما إن رجعوا إلى ديارهم حتى أخذت السلطات الأسبانية تنكل بهم وتسومهم العذاب لسبب واحد هو أنهم يحرصون كل الحرص على اعتبار أنفسهم من المواطنين المغاربة ، وأن مقاطعتهم التى يعيشون فيها لم تكن الأجزاء من أجزاء الوطن المغربى .

وفى سنة ١٩٥٨ أعلنت أسبانيا أنها قررت ضم « افنى » إلى جزر الخالدات الأسبانية ! !

وهكذا أعادت حالة التوتر فى هذه المنطقة من جديد .

الفصل الرابع

مشكلات المجتمع العربى الاجتماعية

الأقطار العربية فى جملتها بلاد زراعية ، إذ أن الزراعة عماد الاقتصاد العربى ، وتقوم الزراعة فى معظم الأقطار العربية على الأساليب البدائية القديمة ، وقد عمد الاستعمار منذ جاء إلى الوطن العربى إلى إقامة النظام الإقطاعى ، ليخلق طبقة جديدة ترتبط مصالحها ببقاء الاستعمار . وأدى النظام الإقطاعى إلى انخفاض مستوى الإنتاج الفردى والعام و بالتالى إلى انخفاض الدخل القومى .

وقد ترتب على وجود الإقطاع انقسام المجتمع العربى ، وتباعد الأفكار العربية ، إذ أن ضعف القوة الشرائية عند الفلاحين العرب ، وهم أغلبية السكان يقف عقبة كأداء فى سبيل التقدم الصناعى ، وبالتالى يحول دون قيام التبادل التجارى كما أن الإقطاع يحول الفلاحين إلى أقنان تهدر كرامتها من أجل الرغيف ، وتسيرها الزعماء كما يريدون قطيعاً بشرياً فاقد الحرية والإرادة والتفكير .

ومن المشكلات الاجتماعية التى يعانى منها المجتمع العربى « مشكلة الأقليات » سواء أكانت أقليات دينية أم أقليات

قومية . فى الوطن العربى أقليات دينية أهمها المسيحيون واليهود . . وأقليات قومية مثل الأكراد والأتراك . . ومشكلة الأقليات القومية والدينية لا تظهر بصورة واحدة فى جميع البلدان العربية ، فهناك بلدان عربية لا تكاد تعرف هذه المشكلة مثل الإقليم المصرى والمملكة السعودية واليمن وبلاد الخليج العربى . وقد تأثرت هذه الأقليات بالثقافة العربية ، وتأثرت بالإسلام من الناحية الخلقية حتى أصبح أبناء هذه الطوائف لا يختلفون كثيراً عن المسلمين المحيطين بهم .

والتاريخ العربى لم يفصل أبداً بين العرب المسلمين والمسيحيين إلا حينما بدأ الاستعمار يستغل الشعور الدينى لتفرقة الأمة العربية الواحدة .

فحين خرج العرب من الجزيرة العربية يحملون رسالة الإسلام ، حارب عرب الحيرة المسيحيون إلى جانب عرب الجزيرة المسلمين ضد الإمبراطورية الفارسية .

وقاتل العرب الغساسنة النصارى جنباً إلى جنب مع عرب الجزيرة المسلمين ضد الامبراطورية البيزنطية[١].

وحين غزا الاستعمار الأوربى الأراضى العربية ، متستراً

---

(١) « العروبة أولا » : الأستاذ ساطع الحصرى .

باسم « الصليب » حارب العرب المسلمون والمسيحيون إلى جانب بعض ضد الصليبيين .

ولما قامت ثورة سنة ١٩١٩ فى مصر ، قامت على اشتراك جميع المواطنين العرب ، مسلمين ومسيحيين ، حيث قاموا سويا يطالبون بالاستقلال .

ولما بدأت المراسلات بين الشريف حسين وبين بريطانيا للاتفاق على حدود الدول العربية قبل قيام ثورة سنة ١٩١٦ ، رفض العرب التخلى عن ولاية بيروت التى أرادت بريطانيا فصلها عن الدولة بحجة أن معظم سكانها مسيحيون ، واستند العرب فى ذلك ، إلى أن سكان الولاية عرب لا يفرق بينهم الدين ما دامت تجمعهم القومية العربية الواحدة . والقومية العربية وحدت بين أفراد الأمة العربية الواحدة ، مهما اختلفت طوائفهم حين وحدت تاريخهم الطويل ولغتهم وثقافتهم وأهدافهم .

ومن مشكلات المجتمع العربى أيضاً « الإقليمية » وقد أوجدها الاستعمار وغذاها أعوانه لتكون بمثابة حواجز فكرية ونفسية تدعم الحواجز الجغرافية السياسية وتثبت التجزئة فى الوطن العربى ولكن الإقليمية تعبير شاذ عن وضع شاذ ، وترجع فى أساسها إلى ضعف الوعى القومى العربى . ولذلك فلا بد من زوالها حين يشتد تبلور هذا الوعى ، وتزداد معرفة الإنسان العربى لحقيقته .

وأبرز مشكلات المجتمع العربى « الفقر » . ويقول « توماس بين » : « إن الفقر ليتخدى كل فضيلة وسلام ، لأنه يورث صاحبه درجة من الانحطاط والتذمر تكتسح أمامها كل شيء .. ولا يبقى قائماً غير هذا المبدأ : كن . . أو لا تكن . . » .

أما مشكلة الجهل فتبدو واضحة جلية وحتى يمضى المجتمع العربى مع موكب المجتمعات الراقية المتمدنة يجب أن يزول الجهل ، وذلك برنامج ينفذ على عدة سنوات لتعليم جميع الأميين القراءة والكتابة ، تشرف عليه الدولة ويقوم بتنفيذه كل مواطن قادر بأن يفرض عليه تعليم ثلاثة من الأميين ، أو يدفع نفقات تعليمهم . وتفتح مدارس ليلية ومكتبات عامة فى كل مدينة وقرية . وتفرض غرامة على كل من تتاح له فرصة التعليم ويرفضه . على أن محو الأمية لا يكفى ، بل يجب بذل الجهود لنشر الثقافة العامة التى تفتح منافذ فى أدمغة الناس وتعودهم على التعاون ، وتربى فيهم ملكة الذوق .

ويعانى المجتمع العربى فى بعض الأقطار العربية من ، « مشكلة البدو » وتبدو هذه المشكلة واضحة فى الجزيرة العربية وبعض أجزاء العراق والمناطق الداخلية فى المغرب العربى وهؤلاء البدو لا يعتبرون أنفسهم جزءاً من أى المجتمع ، لشعورهم باستقلالهم فى معظم الأحيان ، فلهم شرائعهم وتقاليدهم الخاصة. ووسائل معيشتهم محصورة فى الإبل والماشية ، ولهم مشكلاتهم

الاجتماعية الخاصة . وهم محرومون من كل شيء الغذاء ، والعلم ، والخدمات الصحية والاجتماعية ، وعلى الرغم من وجود إمكانيات كبيرة من الأيدى العاملة فيهم ، إلا أن المجتمع العربى لايستفيد من وجودهم شيئاً رغم أن عددهم يبلغ نحو ربع عدد العرب .

ولذلك فمن المحتم على الحكومات العربية أن تعمل على توطين هؤلاء البدو الرحل ، وذلك لأن البداوة تتنافر بطبيعتها مع فكرة الأمة والقومية والدولة .

ومما لا شك فيه أن الأسرة هى دعامة المجتمع . . ويجب أن يقوم كيان الأسرة على المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات . ولا يحق للمجتمع أن يتدخل فى كيان الأسرة إلا إذا كان ذلك لضرورة قصوى حين يقع الضرر على أحد أعضاء الأسرة وخاصة الأطفال ، أو إذا ثبت أن فى قيام هذا الكيان أو بقائه إساءة للمجتمع والكرامة الإنسانية[١] .

وقد أهمل المجتمع العربى المرأة فى الأزمان القديمة . فبقيت جاهلة ، مهدورة الكرامة ، حتى جاء الإسلام فاعتبر المرأة كائناً مستقلاً لا مجرد تبع للرجل . وأعطتها الشريعة الإسلامية شخصية قانونية كاملة وأمنت لها الاستقلال العادى .

(١) المجتمع العربى : دكتور على حسن الخربوطلى .

ويتحدث القرآن الكريم عن علاقة الرجل بالمرأة باعتبارها علاقة ثقة متبادلة ومودة ورحمة . وفى أول عهد الإسلام كان وضع المرأة وموقف الرجل تجاهها مقرراً على ضوء تعاليم القرآن والسنة . ولم يكن النساء فى تلك الأيام يعزلن أو يتحجبن بل كن يشاركن الرجال ويظهرن معهم فى المناسبات العامة .

وكان وضع المرأة العربية يعكس أحوال مجتمعها ، فعند ما كان المجتمع العربى منتجاً ومبدعاً ، ساهمت النساء فى أوجه نشاطه وشاركن فى قوته وفى رفاهته . وعند ما انحسرت حيويته ودب الانحلال فى أوصاله تأذت المرأة بجانب مجتمعها . وبنشوء الحياة الجديدة فى المجتمع العربى استعادت المرأة وعيها لتراثها وأخذت تدرك حاجاتها ومتطلبات العالم الحديث الذى تعيش فيه . وهى اليوم تساهم فى بناء مجتمع عربى جديد .

ومن أهم المشكلات التى تتعرض لها الأسرة العربية مشكلة « النسل » فالطفل هو أقوى صلة بين الزوجين ، وهو إذا لم يجد البيئة الصالحة لنموه ونشأته أصبح مشكلة كبرى . ومن الضرورى لمصلحة الطفل والأبوين والمجتمع ، أن ينظم النسل بالشكل الذى يتيح لكل مواطن أن ينعم بما منحته الطبيعة من قدرة على التناسل ، وأن يرى منها خير متنفس لعواطفه وغرائزه ، كما يجد فيها أحسن طريقة لحفظ نوعه .

وتنظيم النسل يعنى أولاً تنسيق الحمل ، فيجعل الأبوان بين كل طفل وأخيه ثلاث أو أربع سنوات . تستطيع الأم خلالها أن تعنى بطفلها وترعاه الرعاية الكاملة ، وتستريح خلالها من أعباء الحمل والرضاعة ، وتستعد لمرحلة جديدة . وعلى الأبوين أن يقنعا بثلاثة أو أربعة أولاد . ويبذلا الجهد الكبير فى سبيل تربيتهم تربية صالحة ، وتعليمهم وتثقيفهم ثقافة واعية ، وإنه لخير للأبوين أن يقدما للوطن فرداً صالحاً نافعاً ، من أن يقدما عشرة أفراد لا جدوى من ورائهم .

ونحن نعلم أن منشأ هذه الفوضى التناسلية ، راجع إلى سوء فهم الدين والقدر والتوكل . والإسلام يبيح التحكم فى النسل لصالح المجتمع ولصالح الفرد ، ويعد الإسراف فيه — مع وجود الخصاصة والضيق — ضرباً من البلاء لا يطاق .

ففى حديث شريف أن النبى عليه السلام ، كان يكثر من هذا الدعاء :

« اللهم إنى أعوذ بك من جهد البلاء » .

قيل : وما جهد البلاء يا رسول الله ؟

قال : قلة المال ، وكثرة العيال .

وسئل عن العزل . . فقال . . لا عليكم ألا تعزلوا »

والعزل يومذاك كان الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها التحكم في النسل وضبطه ، وقد أباحه الرسول بلا قيد كما رأينا في الحديث السابق .

ولا بد مع تحديد النسل من تنظيمه ، والفرق بين الاثنين واضح : فالأول يعني الكم ، والثاني يعني الكيف ، كلاهما ضروريان لسلام المجتمع وأمته[1] .

والمواطن الصالح لا يقبل أن يكون أباً وزوجاً وهو يحمل مجموعة من الأمراض والأوبئة ، يعلم أنه سيورثها لعقبه وذريته . ومن الواجب أن يتوجه كل مواطن ومواطنة إلى مكاتب الكشف الطبي في غبطة وشجاعة قبلما يحاولون أن يكونوا أزواجاً أو زوجات .

والمواطنية لم تعد تعني موقف الحياد السلبي والعزلة أمام الواجبات ، بل هي أن يؤدي كل فرد التزاماته ، كمواطن ، وتحمل تبعة الرشد كأنسان .

إذا نظرنا إلى المواطنية نظرة صحيحة — وجب أن تشمل جميع أعمال الإنسان التي تمس بني جلدته ، وتؤثر في سلامة الدولة ورخائها — وتكاد تكون صنواً لواجباته نحو جاره ، وتتضمن هذه المواطنية كل شيء تقتضيه شرائع الدولة ويتطلبه

---

(١) من هنا . . . نبدأ : الأستاذ خالد محمد خالد .

الضمير الإنسانى .

وليست المواطنية شيئاً سلبيًّا – أى مجرد امتناع المرء عن التصرفات غير الوطنية ؛ بل هى عمل إيجابى . وفى هذا يقول « بركليس » – إننا لا نعد الرجل الذى يقف موقف العزلة أمام الواجبات العامة ، رجلا هادئاً ، بل نعده رجلاً لا خير فيه . . ويقول « بيرك » الحياة العامة مركز للسلطات والنشاط . والرجل الذى ينام أثناء نوبة حراسته يذنب فى حق الدولة عليه ، شأنه فى ذلك شأن من ينضم إلى أعداء بلاده .

. . والدولة المثلى هى التى يعقد كل مواطن من مواطنيها العزم على أن يكون جزءاً من المجتمع الذى يعيش فيه ، ويساهم فى أعبائه ويضع مصلحة المجتمع قبل مصلحته الخاصة.

وهذه الدولة آلة لا نجد فيها جزءاً واحداً من أجزائها معطلاً أو خاملاً ، أو صادئاً ، أو مكسوراً ، أو موضوعاً فى غير موضعه . . وفيها يساهم كل ترس بقسطه الكامل من العمل فى سرعة وتناسق .

فالرجل الذى يتملص من أداء الضريبة المفروضة عليه – مواطن ردىء ، ومثله أيضاً الرجل الذى لا يفكر حين يدلى بصوته فى الانتخابات البرلمانية إلا فى مصالحه الخاصة ، أو يهمل الاقتراع – وتلك أيضاً حال صاحب العمل الذى يضاعف مشاكل وطنه بسوء معاملة عماله . . ومثل هؤلاء أيضاً

أرباب المكاسب الفاحشة ، وتجار السوق السوداء وعملاؤها ، والذين يؤثرون مصالحهم الخاصة حينما تكون مصائر بلادهم فى كفة الأقدار » [١] .

فالمواطنية ، دين يدعو المواطن إلى بذل الواجب من أجل الوطن . . ويدعو الوطن إلى تمكين الفرد من أداء الواجب .

فالمواطنية تحتم على الفرد أن يحافظ على استقلال بلده وحريته ، وأن يعمل جاهداً فى سبيل رقيه ، وأن يحترم القانون والنظام ، وأن يرشد غيره إلى الصراط المستقيم ويؤدى الضرائب ويقوم بعمله خير قيام مستهدفاً الصالح العام للمجتمع .

والمواطنية تحتم نشر العلم ، فالعلم هو النافذة التى نطل منها على الحضارة والمدنية ، وتفتح آفاقاً جديدة للشعوب . والعلم ضرورى لبناء المجتمع العربى الجديد الذى ننشده فهو الذى يزودنا بالفنيين والمهندسين والصناع المهرة وغير ذلك مما هو ضرورى لقيام الصناعات المختلفة . ومن أهم واجبات المجتمع وتحسين أحوال أفراده ، وتوفير حياة كريمة لهم .،

---

(١) « التربية لعالم حائر » تأليف سير وتشرد لفنجستون وترجمة الأستاذ وديع الضبع .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١